المجتمع الإسلامي: حدوده وآدابه
في ضوء سورة الحجرات

الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي

تعريب

محمد فرمان الندوي

الناشر

المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ

حقوق الطبع محفوظة

من مطبوعات المجمع الإسلامي العلمي

لكناؤ (الهند) (رقم: ٣٩١)

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ الموافق ٢٠١٨م

اسم الكتاب	:	**المجتمع الإسلامي: حدوده وآدابه في ضوء سورة الحجرات**
المؤلف	:	العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي
تعريب	:	محمد فرمان الندوي
عدد الصفحات	:	٨٠
العدد	:	١١٠٠
سعر النسخة	:	٦٠
الناشر	:	المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ ندوة العلماء، لكناؤ (الهند)
الهاتف	:	+91-522-2741539

Email: info@airp.org.in / airpnadwa@gmail.com

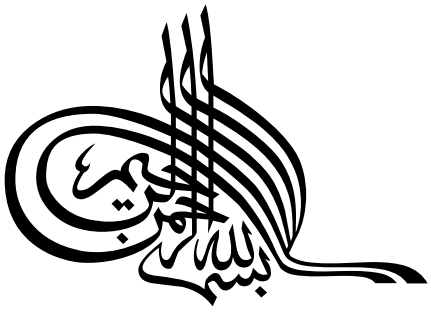
بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد بن عبد الله الأمين، وعلى وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد!

لقد كان هذا الحديث عن المجتمع الإسلامي الصالح، الذي وردت التعليمات في القرآن الكريم بإقامته، في مواضع كثيرة، وخاصةً في سورة الحجرات، من الأحاديث الرمضانية التي ألقاها الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي في مسجد مقره برائ بريلي، ونال هذا الحديث القبول عامةً، ثم طبع هذا الحديث لتعميمه، وكان من أهمية هذا الحديث أنه يُلقى الضوء على دور الإسلام إزاء بناء حياته الصالحة فردياً واجتماعياً، فإن إصلاح الأفراد يؤدي إلى إصلاح المجتمع، وإصلاح المجتمع يؤدي إلى إصلاح الحياة كلها.

الإسلام يخاطب الفرد والمجتمع معاً، وإذا وُضع في المجتمع رادع خلقي فإنه يساعد في مكافحة الفساد والانحراف، فإن القانون لا يكفي لمكافحة الفساد من الحياة الفردية والاجتماعية، لأنه محدود التأثير، ولكن إذا وضع في المجتمع وأفراده رادع خلقي وشعور بالتمييز بين الفساد والصلاح، فإنه يسبب في مكافحة الفساد.

وقد كان هذا الحديث باللغة الأردية، فقام بنقله إلى اللغة العربية الأستاذ الدكتور محمد فرمان الندوي (مساعد المدير لمجلة البعث الإسلامي وأستاذكلية اللغة العربية وآدابها بدار العلوم لندوة العلماء، لكناء) الذي قام بنقل عدد من البحوث العلمية والكتب إلى اللغة العربية، فأرجو أن نقل هذا الحديث إلى اللغة العربية متحلياً بحواش مفيدةٍ سيفيد في نقل هذا الموضوع المهم إلى الناطقين باللغة العربية، فإن هذا الموضوع يأتي في ضمن حقوق الإنسان، وإن الحضارة المعاصرة رغم تقدمها في سائر المجالات المادية أغفلت بناء الإنسان خلقياً، وقد جعلت العالم قرية، لكنّها فرقت بين إنسان وإنسان، وأصبح الإنسان كالآلات إنسانا آلياً خالياً من الشعور وعواطف المحبة والتعاون بين فرد وفرد.

أرجو أن ينال هذا الحديث المعرب القبول في الناطقين باللغة العربية، كما نال في الأوساط الهندية الناطقة باللغة الأردية، ويكون عاملاً لبناء حياة إنسانية متكاملة متكافلة، وأدعو الله تعالى أن يجعله نافعاً في بناء المجتمع الصالح، ليس للمسلمين فقط، بل للإنسانية جمعاء، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

محمد واضح رشيد الحسني الندوي
ندوة العلماء – لكناؤ
١٤ رمضان ١٤٣٩هـ / ٣٠ مايو ٢٠١٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم: سعادة الشيخ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي
رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي
ومدير دار العلوم لندوة العلماء، لكناؤ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد:

فإن سورة الحجرات في كتاب الله تعالى تحتوي على آداب وأحكام، أنزلها الله سبحانه لعباده المؤمنين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع مراحل الأمور، من غير أن يتسارعوا بالقول بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تشتمل سورة الحجرات على أدب الاحترام والتبجيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى آداب الجلوس والكلام معه بصوت خافض غض لين، من غير جهر أو ارتفاع صوت، ونهى الله الناس عن دعاء ونداء الرسول (صلى الله عليه وسلم)، والكلام أمامه، كما يفعل زميل مع أخيه أو عامة الناس فيما بينهم، كذلك أمر عباده المؤمنين بالتبين والتحقيق في نبأ يأتيهم من

أي جهة، وكذلك شملت السورة آداب الحياة الاجتماعية والفردية، كما أكدت أن المؤمنين الصالحين إخوة، والمعايشة فيما بينهم بالقسط والعدل والرحمة، ونهاهم عن جميع الأعمال التي تفسد الأخوة الإيمانية من السخرية وسوء الظن والتنابز بالألقاب وبالتالي التجسس والاغتياب اللذين هما أكثر أعمال الناس سوءً ونتائج وخيمة، وأكد الله سبحانه أن التقوى هي الركيزة التي تمهد الطريق إلى العز والكرم وسمو الخلق.

وهناك توجيهات وتعاليم عديدة أخرى تتناول المؤمنين، لكي يعيشوا في هذه الدنيا في سلامة وأمن وسعادة وكرامة، ويتكون بذلك مجتمع صالح يعيش فيه الإنسان كعبد متواضع ومتقرب إلى الله تعالى ومستحق نعمة الحب والثقة، والأخوة الإيمانية، وهو يمثل بذلك حياة الإيمان والطاعة والخشوع والعبودية الكاملة لله تعالى.

السورة كلها توجيهات ربانية، وكتاب مستقل يعلم الأدب والخلق والكرم والعدل والحب والأخوة، وينذر من كل ما يغاير هذه الخصال الجميلة والأخلاق الإنسانية، وهي تعلم جميع آداب الحياة المعاشة في المجتمعات البشرية، وتبيِّن درجات الإنسان الكبير مع الصغير، والصغير مع الكبير، من غير كلفة واسعة في ممارسة شؤون الحياة في الدنيا لبناء الآخرة، وكان الإسلام نعمةً من الله تعالى على الإنسان، وهو يعلم نسبة الإخلاص والإيمان في قلب كل إنسان، فإنه يعلم غيب السماوات والأرض، وهو بصير بكل

ما يقوم به الإنسان في سر وخفاء أو إظهار وإعلان: إن الله يعلم غيب السماوات والأرض، والله بصير بما تعلمون.

إن هذه الرسالة محاضرات ألقاها سعادة العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي كخلف صادق للإمام العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي (رحمه الله تعالى) الذي كان يُلقى محاضرات ودروساً في جامع السيد أحمد الشهيد في تكيه كلان بمديرية رائ بريلي (الهند) موطن هؤلاء الأعلام في هذه البلاد، وكان هذا الجامع التاريخي ينزل فيه عباد رمضان والمعتكفون لقضاء أيام وساعات الشهر الفضيل.

نشرت هذه المحاضرات والدروس في مجموعات تعتبر زيادةً في مكتبة رمضان الإسلامية، وهذه المجموعة من دروس ألقاها سماحة الشيخ العلامة محمد الرابع الحسني الندوي في رمضان المنصرم باللغة الأردية، وصدرت لها مجموعة في رسالة باسم: (المجتمع الإسلامي في ضوء سورة الحجرات)، وقد قام بنقلها إلى العربية الجميلة الأخ العزيز الدكتور محمد فرمان الندوي (أستاذ التفسير والأدب العربي بكلية اللغة العربية وآدابها بدار العلوم لندوة العلماء)، وعرضها على سماحة المؤلف الكريم (حفظه الله تعالى) الذي تناولها بالتهذيب والتنقيح، وسمح بنشرها في كتاب باسم (المجتمع الإسلامي: حدوده وآدابه في ضوء سورة الحجرات)، وقام المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ (الهند) بطبعه وتوزيعه.

وإنني إذ أرى هذا الكتاب عملاً تفسيرياُ متعمقاً بين كثير من الكتابات التي صدرت من أقلام الباحثين والمفسرين حول الموضوع، أرجو أن ينفع الله تعالى بذلك جميع من يقرؤنه ويحرصون على إصلاح الحياة الاجتماعية وبناء المجتمع الصالح في العالم المعاصر اليوم.

والله ولي المخلصين المتقين.

كتبها

سعيد الأعظمي الندوي

رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي

ندوة العلماء، لكناؤ

١٧/رمضان ١٤٣٨هـ

٢/يونيو ٢٠١٨م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

ممّا يمتاز به الإسلام عن الديانات الأخرى أنه يخاطب كل فرد من المجتمع ويركز على إصلاحه، ويربط المخلوق بالخالق، ومن مزايا الإسلام الأساسية أنه يعتبر العلاقة بين الإنسانية والمجتمع والأسرة والفرد أهم غاية، كما ورد في الحديث النبوي، قال صلى الله عليه وسلم: " خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي "، سنن ابن ماجه: ٢٠٥٣)، وأوضح مثال له أن الله تعالى ذكر في القرآن الكريم مع حقوقه حقوق الوالدين، قال تعالى: وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً (النساء: ٣٦) وقال في موضع آخر: وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً (الاسراء: ٢٣–٢٤).

ذكر القرآن الكريم كذلك الإحسان إلى كل فرد من الأسرة مع بر الوالدين، كما نهى عن الأمور التي تفسد هذه العلاقات، فشرح القرآن هذه الأمور في سور عديدة، ونهى عن سائر الأعمال التي تؤثر فيها، حتى نهى عن سوء الظن والشك، قال الله تعالى:

يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُواْ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (الحجرات: ١٢).

وورد كذلك ذكر الإحسان إلى الأولاد والإخوة مع الوالدين، وذكرت تفاصيله.

وإن العلاقات بين الزوج والزوجة التي تحمل أهميةً كبيرة، كذلك مسائل توزيع التجارة والميراث التي تكون سبباً للخلافات، ذكرت لها توجيهات وبينت لها أصول وضوابط.

وإن في المجتمع غنياً وفقيراً، وقوياً وضعيفاً، ولهم حقوق معينة بكل تفصيل، فقد سلّط القرآن الكريم الضوء على هذه الجوانب الفردية والأسرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية، وقد ورد الحذر من رفع الصوت الذي يكون مبعث إيذاء للآخر مثل اللهجة الشديدة، واختيار مشية يبدو منها الكبر والغرور، واستعمال كلمات مؤذية في شأن الآخرين والاستهزاء منهم، قال الله تعالى: وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ. (لقمان: ١٨–١٩)، وقال في سورة الإسراء: وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً. كُلُّ ذلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (٣٧–٣٨). وإن الغضب الذي يفسد العلاقات

والمعاملات، ويقترف كثير من الناس في الغضب أموراً تسبب نتائج سيئة، فقد نهى القرآن الكريم عنه قائلاً: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (آل عمران: ١٣٤)، وقد روعي في الخلاف الداخلي الحلم والعفو والصلح، كما ورد النهي عن المحاجة والمخاصمة.

القرآن الكريم دستور كامل في آداب الحياة، تناول هذا الدستور كل جانب من الحياة من العبادة والمعاملة والأخلاق، فوردت أحياناً تعاليم في صورة العقيدة، وأخرى في صورة التوجيه المباشر، قال الله تعالى: يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (الحجرات: ١١). وفي الحياة الخاصة ذكر القرآن آداب القتال، ووجه فيها توجيهات وذكّر الناس بأخلاقيات الحرب، وعدم التعرض لغير المحاربين، قال الله تعالى: وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ (التوبة: ٦)، واعتبر القرآن الكريم قتل النفس وقتل الأولاد خطأً كبيراً، قال تعالى: مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً (المائدة: ٣٢) وقال: وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (الإسراء: ٣١)، وتناول ذكر

العدل وحسن المعاملة مع الأزواج بكل تفصيل: وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً. (النساء: ١٩)، وإذا لم تستقر العلاقات بينهما، وكان الطلاق لازماً أوصى القرآن به بجودة وإحسان، قال تعالى: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً (النساء: ٣٥)، وقال: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ (البقرة: ٢٣١).

وقد وردت توجيهات عن آلهة غير المسلمين بحيث لا تستعمل لها كلمات تبعث ردود فعل في المنتمين إليهم، قا ل تعالى: وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (الأنعام: ١٠٨)، فتبقى بها بين المجتمع المسلم وغير المسلم علاقات حسنة، وهذا لا يمكن إلا إذا كان عدم التدخل في عقائد غير المسلمين ومناهج حياتهم.

يريد الإسلام إنشاء مجتمع يكون فيه المسلم أداة بناء، لا أداة هدم، قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (الأنفال: ٢٩) فإذا روعيت هذه الآداب كان صاحبها شخصية نموذجية، وقد وجدت روائعها في السيرة النبوية أن المشركين

وأعداء الإسلام يضعون عند النبي صلى الله عليه وسلم الودائع، ولما اختلفوا في نصب الحجر الأسود أجمعوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم حكماً، وقالوا: هذا الأمين رضينا به، وقدَّم الإسلام حلاً لقضايا الحياة الطبيعية، وذكر في مواضع حقوق الملوك والصلحاء وخاطب في بعضها المسلمين مباشرة، ومن أكبر أمراض هذا العصر الأنانية، أي إيثار الإنسان نفسه وأسرته وشعبه، فتحدث به نزاعات واختلافات في العالم كله، استأصل الإسلام هذه التقسيمات من جذورها، واعتبرها نظام تعارف لا نظام تفاخر، قال الله تعالى: يأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات: ١٣).

أكد نظام التعليم الغربي على الفرد، لكن الإسلام يخاطب الجماعة، ويؤكد على بنائها وإصلاحها، فأولاها القرآن والحديث بعناية فائقة، إن الحضارة الغربية قضت على فكرة المجتمع، فلا يوجد هنا نظام للأسرة والمجتمع، وقد زالت فيه جميع العلاقات الودية بين الوالدين والأولاد، فأنى نظام المجتمع؟ وكذلك امحت آثار الحب والرحمة، والمواساة والتعاون الأخوي، ويركز الغرب كثيراً على المصالح الذاتية، فينتشر هذا الاتجاه من وسائل الإعلام ونظام التعليم والتربية واللقاءات الجارية أثناء الرحلات والأسفار، هذا الاتجاه يضاد الدين والأخلاق، كما يضاد تعاليم الإسلام، فتمس الحاجة إلى تفكير في إصلاح المجتمع مع إصلاح الحياة الفردية.

سورة الحجرات ذكرت فيها كثير من مثل هذه الآداب، وقد دأب أخونا الكبير الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي على اهتمامه بدرس القرآن الكريم في رمضان المبارك، فيختار لدرسه موضوعات ذكرت فيها آداب الحياة، ليتحلى بها الناس، فيمكن بها إزالة الفساد المستشري في المجتمع، وسد الخلل الذي يكون في الأوساط الدينية، وقد قدمت في هذا الكتاب دروسه حول سورة الحجرات، وكانت هذه الدروس محفوظةً في الشريط، فنقلها الأخ العزيز محمد أرمغان الندوي، وتطبع الآن بعد تنقيح وتهذيب، ليستفيد منها القراء، كما استفاد منها الحاضرون في الدروس.

أرجو أن هذا الكتاب يؤدي دوراً مهماً في إصلاح المجتمع، والله ولي التوفيق.

محمد واضح رشيد الحسني الندوي

رئيس الشئون التعليمية بندوة العلماء، الهند

٣٠/ محرم ١٤٣٨هـ يوم الأربعاء أول نوفمبر ٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فالإسلام دين يغطي جميع شعب الحياة، وقد منح الإسلام لكل شعبة من شعب الحياة سواء كانت فردية أو جماعية، تعاليم وآداباً بحيث يعيش صاحبها حياة ناجحة، وقد وفّر للحياة الاجتماعية أيضاً توجيهات كاملة ومعتدلة، فإنَّها تحفة ثمينة للعالم البشري، وقد ذكر القرآن الكريم تفاصيله في مواضع شتى، وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن تفسير لها.

لا يمكن فكرة حياة إسلامية صحيحة بدون هذه التوجيهات الجامعة، وهناك طائفة من الناس، لا يمكن أن تمثل الإسلام تمثيلاً صحيحاً رغم كونها مسلمة، جهلاً عن هذه التوجيهات الربانية والتعاليم الدينية، فتأتي صورة الإسلام أنقص أمام العالم، ويصاب الناس بسوء الظن من الإسلام، فالحاجة إلى أن تكون عناية خاصة بهذه التوجيهات الاجتماعية، وتقدَّم أمام الناس في ضوء القرآن والحديث، وتذكر في الخطب والكتابات العامة.

توجد في أمكنة متعددة من القرآن الكريم آيات حول هذا الموضوع، لكن سورة الحجرات سورة كاملة في هذا الباب، ذُكرت فيها أمراض اجتماعية كما أشارت إلى تدابير ناجعة لإصلاحها، فهي دستور كامل للمجتمع الإسلامي، فكانت الحاجة إلى أن تطبق هذه السورة في الحياة، وتصاغ الحياة الفردية والاجتماعية وفقاً لهذه التوجيهات.

هذا الكتاب الذي هو بين أيدينا تفسير وشرح لسورة الحجرات، وهو مجموعة دروس ألقاها فضيلة عمنا المحترم الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي حفظه الله تعالى، في رمضان المبارك، فسّر فيها سورة الحجرات، بأسلوب سلس، مؤثر وسهل، وقد تخلل فيها كثير من النكت التفسيرية التي قلما توجد في أمهات التفسير، مما يسرني ويسعدني أن الأخ العزيز محمد أرمغان الندوي (سلمه الله تعالى من كل مكروه) قد نقل هذه الدروس من الشريط، ثم رتبها ووضع عناوين جانبية، فجاءت هذه الدروس في صورة مؤلف قيم، يتجلى من دراسة الكتاب أنه قام بهذا العمل على أحسن وجه، وهو حاجة الساعة، أرجو أنه يكون نافعاً بصورة عامة. أدعو الله تعالى أن يبارك في عمر الشيخ حفظه الله، وينشر منه الخير، ويتقبل من المرتب جهده، ويوفقه لما يحبه ويرضاه.

بلال عبد الحي الحسني الندوي

دارة الشاه علم الله، تكية كلان، رائي بريلي

٧/ صفر ١٤٣٨هـ

سورة الحجرات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ

ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧
فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى
ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ
فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ
أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا
يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن
نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ
بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا
مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب
بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا
فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ
إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ قَالَتِ

ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا
يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم
مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ
وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ
أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ
قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ
لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾

المجتمع الإسلامي
في ضوء سورة الحجرات

وقد عَلَّم الله تعالى المؤمنين في سورة الحجرات آداباً وقواعد لقضاء الحياة الإنسانية، والحياة الإنسانية عبارة عن نوعين من العبادات: نوع هو الانقياد التام لله تعالى، وامتثال أوامره، ونوع آخر هو مراعاة حقوق وآداب فيما بين الناس، وحسن التعامل مع الإخوة، وإكرام كل صغير وكبير، وأداء حقوقهما، وأداء الأمانة، والسرية في كل شيئ، وعدم إفضاء الكلام إلى أحد بدون روية، رُبَّما تظهر له نتائج سيئة، لأن هذا الكلام يكون معاكساً للواقع[1].

عظمة الرسول ﷺ:

فأول شيئ هو أن يكون تعامل المؤمن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منفرداً من التعاملات الأخرى، وقد أمر بذلك الصحابة رضي الله عنهم، لأنهم كانوا يرون كل حين وآن النبي صلى الله عليه وسلم، فأمر القرآن الكريم أن يكون سلوكهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم متميزاً بالنسبة إلى الآخرين، وأن يختاروا أسلوباً

---

[1] قال الإمام محمد أشرف علي التهانوي (١٩٤٣م): موضوع سورة الفتح إصلاح الآفاق بالجهاد وموضوع سورة الحجرات إصلاح الأنفس بالإرشادات والتوجيهات، فهذه السورة تبيِّن حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم وحقوق المسلمين عامةً (بيان القرآن، تفسير سورة الحجرات).

حسناً، ولا يتقدموا بالكلام أمام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم، وليكن على ذِكر وذُكر منهم أنهم أمام نبي ما زالت صلته بالسماء وطيدةً، ينزل عليه الوحي، وينزل عليه كلام الله القرآن، فهذا الكلام السماوي يصل إليه مباشرةً، ولا يصل إلى غيره من الناس.

شعائر الله تعالى:

يتحدث الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (م ١١٧٤) رحمه الله تعالى عن عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول: "ومعظم شعائر الله أربعة: النبي والكعبة والصلاة والقرآن[١]، هذه الأشياء الأربعة فاقت بها الأرض على السماء، وإلا كانت هذه الأرض وضيعةً أمام السماء، وإذا نزل شيئ سماوي على الأرض لا تتحمله، كما أن الحجر الثقيل اذا وُضع على التراب ساخ به، أو كان خشب أمام الحديد، فلا قيمة له، كذلك كانت هذه الأرض تافهةً وضعيفةً أمام السماء، فأول هذه الأشياء الأربعة شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، ويأتي في شعائر الله تعالى احترام الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الله تعالى خصه بنفسه، وقال: قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[٢]، يعرف بهذه الآية مكانة الرسول

---

[١] حجة الله البالغة: ج ١، ص ٧٠، طبع في المطبع الأشرفي الواقع في بلدة ديوبند (الهند).

[٢] آل عمران: ٣١.

صلى الله عليه وسلم، وقال تعالى في موضع آخر مخاطباً المسلمين: لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً[1].

جعل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أكمل إنسان، كما يكون هناك نموذج ومثال، يدرك به الإنسان حقيقته، ويتفكر كيف يحاكيه ويقلِّده، كذلك جعل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أعلى نموذج في الإنسانية، فإذا أراد إنسان أن يكون خير الناس سيرة وخلقاً، فعليه أن يقلده وينهج منهجه، ويعمل بسنته، فيكون محبوباً عند الله ومقرباً لديه، لأن الله تعالى آثر شخصيته بنفسه.

شخصية الرسول ﷺ:

وبما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من شعائر الله تعالى، فكان احترامه والعمل بسنته وامتثال أوامره وإبداء عواطف الحب له من واجباتنا الأساسية، وورد عن حبه صلى الله عليه وسلم أن إيمان الرجل لا يكون كاملاً ما لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم أحب لديه من الوالد والولد والأولاد، ويجب أن يكون حب الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من حب الوالدين، قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين[2].

وقد عرفنا من دراسة سير الصحابة رضي الله عنهم أن

---

[1] الأحزاب: ٢١.

[2] صحيح البخاري: ١٤.

صحابياً حينما سُئل وقت استشهاده: أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك وأنك في أهلك؟ قال: ما أحب الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي[١]، هكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يحبون النبي صلى الله عليه وسلم، ويطالَب من جميع أفراد الأمة المحمدية بمثل هذا الحب، ولا يكون مثله إلا لله، لا للوالدين ولا للأولاد ولا للمال والمتاع، ولا لأي شيئ آخر، ولا يكون لأحد سوى النبي صلى الله عليه وسلم، لأن حب النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان كاملاً، عمل الإنسان بأسوته، واعتبر كل جزء من حياته حسناً.

واجب الإيمان الكامل:

يحتاج كل مسلم اليوم إلى أن يحب الرسول صلى الله عليه وسلم، ويستعرض حبه، ولا يقدَّر هذا الحب بالقول فقط، بل يقدر إذا وُضع إزاءه شيئ، وقد يقع حب منافع الدنيا وأموالها وأمتعتها في قلب إنسان موقعاً، يخل به أمر الدين، فنهى الله سبحانه عنه، وقال: إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ[٢]، والفتنة لغةً: أمر يصرف الإنسان عن الصراط المستقيم ويُلهيه، أي يباشر الإنسان الخطأ بكل شوق، ويبلغ حبه لشيئ مبلغاً يرتكب فيه جريمةً، ولكن إذا كان حب النبي صلى الله عليه وسلم في قلب رجل كما هو المطلوب، بحيث لا يكمل إيمانه، فلا

---

[١] تفسير ابن كثير، ج ٣، ص: ١٣١.
[٢] التغابن: ١٥.

يمكن أن يعصي الله تعالى رغم عوائق وحواجز كثيرة، لأن الإنسان إذا أحب أحداً فلا يخالفه في أمر ما، ولا يكتمل حب النبي صلى الله عليه وسلم إلا بكمال الإيمان والعمل بالشريعة عملاً صادقاً.

شعائر الله الأخرى:

والشعيرة الثانية هي بيت الله الحرام، الذي له صلة بالسماء، وينزل فيه النور من السماء، وضع الله تعالى فيه قوةً يستطيع أن يحمل ثقل علاقته بالسماء، والشعيرة الثالثة الصلاة التي هي معراج المؤمنين، والشعيرة الرابعة القرآن الكريم، الذي تحدث الله تعالى عنه: لَوْ أَنزَلْنَا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ[1]، لأنه لا يمكن أن يتحمل ثقل هذا الكلام، ومن فضل الله تعالى ورحمته أن كلامه المبارك نزل تدريجياً في قالب الكلمات التي حملها الإنسان، ولو كان نزوله بدون واسطة كان حمله صعباً، أنزل الله تعالى هذا الكلام أولاً بواسطة جبرئيل عليه السلام، ثم نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبهاتين الوسيلتين وصل هذا الكلام إلينا.

احترام رسول الله ﷺ:

يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُواْ اللَّـهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[2].

اتضح مما مضى أن شأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس

---

[1] الحشر: ٢١.
[2] الحجرات: ١.

كعامة الناس، ولا يجوز أن يعتبره أحد مثله، ولا يجوز كذلك أن يعتبره إلهاً، بل هو إنسان، لكنه يمتاز عن عامة الناس بأن له علاقةً خاصةً بالسماء لا يصل إليها أحد، فلا بد أن يُدرك عظمته كل إنسان ويحترمه، ويعتقد أنه أصغر منه بكثير، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم على درجة عالية من الفضل والشرف، لذلك أمر المؤمنون في أول سورة الحجرات أن لا يتقدموا من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يروه مثلهم، ورد في هذه الآية كلمة: " ورسوله "، وهي تدل على أن الله جعله رسولاً، وقد أكرمه بهذه السعادة، فكانت له هذه المكانة العالية، فكأن احترامه هو احترام الله تعالى، وأصل الاحترام هو لله تعالى، ويتصل به كل شيئ له صلة بالله تعالى، فالأشياء التي لها صلة بالله يأتي في مقدمتها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجب احترامه في كل حال، ولم يحصل أحد غيره على هذه السعادة، وجاء ضمن مراعاة واجبات عظمة النبي صلى الله عليه وسلم: "واتقوا الله"، ذلك لأننا إذا لم نُكمل متطلبات العظمة، كان ذلك مكروهاً عند الله تعالى، ونقع نحن في المعاصي والمنكرات، ونكون ممقوتين لدى الله تعالى (أعاذنا الله من كل سوء)، فلا يحالفنا شيئ من الدنيا والملائكة أو أحوالنا الشخصية، غير أن الله تعالى يمكن أن يمهلنا، كما أنه وفَّر لكل رجل فرصاً في الحياة الدنيا أن يقوم بعمل يُرضي الله ورسوله، فحياتنا هذه فرصة سعيدة للإنابة إلى الله تعالى، لذلك ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة: اتقوا الله، واختاروا

طريق الحذر والحيطة في الأمور التي تنتمي إلى الله تعالى، وعظّموها، لئلا تضركم وتخدش أحوالكم.

فكما أن الإنسان يكون في الحياة العامة في بيته، بحيث لا يعظم ولد أباه حق تعظيمه، لأنه يخالطه كل وقت، ويكون الإنسان بعد زيارة كثيرة ولقاء متكرر غير متكلف، كذلك كان الصحابة الذين يحظون دائماً برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم، يمكن أن لا يعظموه، ولا يراعوا حقه، وقد صدر من بعضهم خطأ أحياناً، فجاء في القرآن بكل صراحة: يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، أي لا تقدموا أنفسكم بين يدي الرسول، بل اعتقدوها صغيرة، ولا ترفعوا أصواتكم في التعامل معه والتحدث إليه، ثم أُمر لهم بالتقوى، ويكون هذا العمل للمسلمين مبعث غضب شديد، لأن الله تعالى لا يحب أن يعامل رجل رسوله صلى الله عليه وسلم الذي خصه الله تعالى بنفسه، واختاره لكي يعامل معه معاملة الأصدقاء، ولا يجادل معه أو يتدخل في شئونه.

أخلاق النبي ﷺ وواجب المؤمنين:

وقد كان من رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وكرمه مع الناس أن أحداً إذا أساء إليه ما انتقم منه، أو شدد عليه فلم يقل له شيئاً، حتى إذا دعا الناس إلى طعام، وأتوا إليه قبل الموعد، وجلسوا عنده، واشتغلوا معه بالكلام الذي كان مبعث إيذائه وأهله، فلا يتكلم عنه شيئاً، بل يصبر، قال الله تعالى بكل صراحة

في القرآن: يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُواْ وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ[1]، وقد أكد الله تعالى تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم في مواضع كثيرة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس إنساناً عاماً، بل خصَّه الله تعالى بذاته، فحصل له من الله أمان، وصار هو لله تعالى، وأصبح من أخص عباده، فإذا آذاه أحد مقته الله، ولا ينظر إليه نظرة رحمة بحيث إنه جعله من أحب عباده وأخصهم، فلا يجوز لرجل أن يعتبره صديقاً أو عزيزاً.

وجاء في مقطع الآية: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. أي أن أحداً إذا عمل بالخداع في مراعاة متطلبات عظمة النبي صلى الله عليه وسلم فليس ذلك ممكناً، لأن الله خبير بذات الصدور، وإذا أحب رجل النبي صلى الله عليه وسلم بإخلاص النية معترفاً بعظمته كان الله تعالى مطلعاً عليه، وإذا عظم رجل النبي صلى الله عليه وسلم بكلماته وأصواته كان الله به عليماً، فطلب منا وأوجب أن تكون قلوبنا مفعمةً بعظمة رسول الله تعالى وحبه صلى الله عليه وسلم، وأنه ذو قدسية واحترام، فلن نعامل معه معاملة المساواة، لأن الله يعلم جميع نشاطاتنا ويطلع على أعمالنا كلها، وهو سميع عليم.

أسلوب الكلام:

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىِّ وَلاَ

---

[1] الأحزاب: ٥٣.

تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (الحجرات: ٢).

تشير هذه الآية إلى أن المؤمنين إذا تحدثوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فينبغي لهم أن يخفضوا أصواتهم، وليكن أسلوب كلامهم أخف وأخفض وأدعى إلى الاحترام والقدسية، وينبغي لهم أن يراعوا مثل ذلك من الآداب خلال جلوسهم أمام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يحسن لهم أن يتكلموا عند الرسول صلى الله عليه وسلم، كما يتكلمون أمام أقاربهم وأصدقائهم، بل لا بد لهم أن يلاحظوا غاية الأدب والاحترام، في كل سؤال يوجهونه إليه، لأنه أفضل البشر، ومكانته أعلى وأرفع، لكيلا يحدث أنكم لا تشعرون بمكانته العالية وتتكلمون معه بأسلوب عامة الناس، فتحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون، وأنتم تظنون أننا عملنا أعمالاً في الدنيا، رغم أن هذه الأعمال حبطت نتيجةَ خطأ ضئيل وسوء أدب، وإن كان ذلك لم يكن فادحاً ومتفاقماً في أعينكم.

امتحان القلوب:

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (الحجرات: ٣).

ذكر في هذه الآية امتحان القلوب للتقوى، معناه أن الله تعالى نظر إلى التقوى في قلوب الصحابة رضي الله عنهم، ورُوي عنهم أنهم يتكلمون أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل أدب واحترام، وأحياناً يتكلمون بكل خفية حتى كان النبي صلى

الله عليه وسلم يلجأ إلى استفسار ماذا قالوا؟ وخاصةً بعد نزول هذه الآيات أصبح الناس حذرين كثيراً، فأمروا مرةً ثانيةً أن النبي إذا أمرهم بشيئ فلا تسألوه عن شيئ آخر، ولا تكثروا السؤال عنه، واكتفوا بما أمركم به، وافهموا مدلوله منه، ولا تبحثوا عن أمور أخرى، لذلك ذكر الله تعالى على سبيل الموعظة قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم، التي وردت فيها كراهة كثرة السؤال، حينما أمر بنو إسرائيل بذبح البقرة، سألوا: كيف تكون البقرة؟ وماذا يكون لونها؟ فبناءً على ذلك ضيقوا على أنفسهم السبيل، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن كثرة السؤال، لأنهم يقعون بها في حرج ومشقة، فإذا أمر الله تعالى بحكم عام عن شيئ، فينبغي أن يستفيد الناس منه، وليعملوا به كيفما شاءوا، ولا يقعوا في تدقيق وبحث، فقد قال القرآن الكريم عن النبي صلى الله عليه وسلم: مَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ (الحشر: ٧)، ونظراً إلى هذا كان الصحابة رضي الله عنهم في غاية من الحيطة في السؤال أمام النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا كانوا في حاجة إلى السؤال، فكروا كيف يسألونه، لئلا يصدر منهم سوء أدب، فكانوا ينتظرون قدوم أعرابي، لأن هذا الرجل الغليظ الفظ يسأل عن الواقع، فيسمعون الجواب عنه من النبي صلى الله عليه وسلم، وورد ذكر هؤلاء الأعراب في هذه السورة أنهم يأتون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويتكلمونه بسلاطة اللسان، فيرتكبون عملاً سيئاً، ويخسرون أنفسهم، لكن الذين يغضون أصواتهم أمام

النبي صلى الله عليه وسلم، ويخفضون، فأولئك هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي صدقوا في أعمالهم، ونجحوا في امتحان الله تعالى، فإن هؤلاء يتكلمون بأسلوب هادئ ولين مع الرسول صلى الله عليه وسلم كما يحب الله تعالى، فيحذرون فيه، فلهم مغفرة وأجر عظيم.

طبيعة سكان العرب:

كانت لهجة العرب في التكلم مع أي شخص شديدة، ولا يعتبرون أنفسهم أقل درجةً من غيرهم، وإن كانوا يلقَون كل فرد بكل أريحية، وبما أن هذا الأسلوب لم يكن صحيحاً مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن كان ذلك يعتبر شعار الحضارة المعاصرة، فنزلت توجيهات ربانية صريحة في القرآن الكريم، فامتحنت قلوب هؤلاء الناس للتقوى، فصدقوا فيه، وكما مرَّ من قبل أنهم كانوا صامتين في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم، يسمعون كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بكل أدب واحترام، ويمتنعون عن كثرة السؤال، أثابهم الله تعالى بمغفرة وأجر عظيم كما قال في آخر الآية: لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ.

بعض الأعراب الجاهليين:

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُون. وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (الحجرات: ٤—٥).

ورد في هذه الآيات تأكيد أدب النبي صلى الله عليه وسلم،

لأن بعض الأعراب كانوا ينادون النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات وفقاً لطبيعتهم، يا محمد! يامحمد! اخرج، هؤلاء كانوا يأتون من القرى والأرياف، وكانوا ذوي عنجهية، ولا يعرفون من الحضارة شيئاً، وكيف يكون أسلوب الكلام مع الكبار، وكيف يتكلمون مع الزملاء والصغار، لا يعرفون عن هذه الآداب شيئاً، مرةً وقع مثل ذلك أن بعض الأعراب جاؤا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبدؤا ينادونه صلى الله عليه وسلم من خارج البيت: محمد، محمد، ليصل كلامهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كان كلامهم هذا لم يكن بنية فاسدة، بل كان من جهل بمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن سوء الأدب يكون سيئاً، وإن لم يكن من نية فاسدة، فلم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسلوب كلامهم هذا، فعاتبهم الله تعالى، وعلَّمهم كيف يعاملون الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال عن هؤلاء الأعراب: أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُون. الواقع أن عملهم هذا صدر عن طبيعتهم، ولم يعرفوا كيف يتكلمون مع النبي صلى الله عليه وسلم؟ وكيف يعاملون معه، وكم يحمل النبي صلى الله عليه وسلم من عظمة وشرف بالنسبة إليهم؟

تعليم الصبر وحكمته:

جاء في الآية الثانية عنهم: وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ، لكن مثل هذا النداء لا يناسب تماماً ومكانته، ويمكن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم في أمر لا

ينبغي له خروجه، فإذا نُودي كان ذلك مبعث خلل وإيذاء له، ويحتمل أن الوحي الإلهي ينزل عليه داخل البيت، فلا يناسب نداؤه في هذه الحالة، فلا بد لكل رجل أن يكون على حذر من ندائه صلى الله عليه وسلم من خارج البيت، لأن أمره صلى الله عليه وسلم يختلف كلياً من عامة الناس.

ونبه الله تعالى أهل الحضر أيضاً في هذه الآيات مخاطباً الأعراب كأنه يقول: لا تقلِّلوا من قيمة النبي صلى الله عليه وسلم، لأن له علاقةً بالله قوية، فنال من الشرف والعظمة ما لا يساويه أحد من البشر، فإنه وإن كان بشراً، لكن الله تعالى خصَّه بنفسه، ووضعه تحت كلاءته وعنايته، وهداه إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (النجم: ٣–٤).

عرفنا من هذا أن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كلامه فحسب، بل هو كلام الله تعالى، وهو يصل إلى الناس بواسطته، لأن الله تعالى لا يخاطب أحداً مباشرةً، فإذا نزل كلام الله تعالى على أحد مباشرة لا يمكن له أن يتحمل، وكان النبي صلى الله عليه وسلم كلما نزل عليه الوحي شعر بثقل يتصبب به عرقاً، وينحني ظهره، وإذا كان على دابة فكأنما قصم ظهرها، وإذا كانت ركبته على أحد شعر بأن أطناناً من الثقل قد وضعت عليه، لكن الله سبحانه جعله يتحمل ثقله، وإذا نزل هذا الوحي على رجل عادي مات خنقاً، وما استطاع حمله.

واجب العظمة النبوية:

كأن خلاصة هذه التعاليم هي أن نعتقد مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم من أعماق قلوبنا بحيث يظهر أثرها في سائر شئوننا، وإذا عقدنا مجلساً من مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم شعرنا بعظمة صاحبه، ولا يرى أننا جلسنا في هذه المجالس المباركة، بل نكون خافضين في الكلام مع أصدقائنا، أو نجلس كما نجلس مع أصحابنا، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم خصه الله تعالى بنفسه، وقد أكرمه الله تعالى بالشرف والكرامة بحيث إنه بشر، لكن ليس كعامة البشر، يقول صلى الله عليه وسلم: إنما أنا بشر، أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر[1].

وردت في الآيات المذكورة أعلاه توجيهات خاصة بالعرب، لأن طبائع العرب كانت حرةً، فإنهم كانوا يخاطبون الملوك بأداة: أنت، دخل هذا الأسلوب في العجم الذي ينم عن حضارة جيدة، كيف يكون تعاملنا وسلوكنا مع مختلف المستويات من الناس، وكان العرب يخاطبون الملوك، كما كانوا يخاطبون عامة الناس، مثلاً: أيها الملك! افعل هذا الأمر، فاختار بعض العرب السُذج هذا الأسلوب أمام النبي صلى الله عليه وسلم، لكن كان الأمر أن بعض الصحابة كانوا يقولون: ما رأينا النبي صلى الله عليه وسلم بملء عيوننا، أي لم نجترئ أن ننظر النبي صلى الله عليه وسلم، لأن هيبة النبي صلى الله عليه وسلم قد ملأت قلوبهم، فعرف منه

---

[1] صحيح مسلم: ٦٧٩٢.

أنه كان هناك رجال جُدد من العرب خاطبوا النبي صلى الله عليه وسلم، أو كان فيهم رجال قُدماء تكلموا بصوت رفيع، ونادوا باسمه، لأن كثرة اللقاء تنشئ عدم التكلف، فوجههم القرآن الكريم إلى أن لا يرفعوا أصواتهم، بل أن يستمعوا كلامه، لأنه معلمكم وهاديكم، فلا بد لكم أن تستفيدوا منه وتطيعوه، لكن لا تعاملوا معه معاملة المساواة.

آداب الزيارة:

وإن ما ورد في هذه الآيات من آداب في نداء النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات لا بد من مراعاتها مع النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كانت هذه الآداب جديرةً بالعمل مع عامة الناس، ربما يكون في مجتمعاتنا أن بعض الناس ينادون عند باب أحد بصوت رفيع، ولا يعلم أن ذلك الرجل في أي حالة، لكن الرجل الذي ينادي لا يبالي بذلك، رغم أن من سوء الأدب أن منادياً لا يزال ينادي بغير رد من صاحب البيت، وأدب الزيارة يقتضي أن ينتظر الإنسان جواب صاحب البيت قائماً خارج البيت، أو ينتظر خروجه، ويراعي وقت من يزوره أنه متى يلقاه، ويكون فارغاً للكلام معه، الواقع أن هذه الحضارة الإسلامية قد امحت من بين المسلمين، وصار حال المسلمين أنهم لا يبالون بذلك، وهم ينطوون على أنفسهم، ولا يفكرون في رجل آخر، ولا في أمره، إنهم يدخلون في البيوت بدون حياء، فيخجل منه صاحب البيت أحياناً، ويمكن أن صاحب البيت

يلبس قميصه، أو يكون في الحمام أو يكون في أعمال البيت الأخرى، ويأتي رجل من الخارج، وينادي، ولا يستأذن، ويدخل البيت، هذه كلها آداب غير إسلامية، فقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم آداب الزيارة بغاية من التأكيد، ليطلع الناس على آداب الصغير والكبير في المجتمع مع آداب النبي صلى الله عليه وسلم، ويطلعوا على أن ما هو أسلوب الكلام، ومتى يُلقى الكلام، وبأي مناسبة يُلقى، ومن هو الذي يوجَّه إليه الكلام؟ ومتى ينادى الإنسان؟ وإذا لم يكن اعتناء بهذه الآداب، فيكون الإنسان سبب إيذاء الآخرين في غفلة منها.

فوائد تبين النبأ:

يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (الحجرات: ٦).

جاءت إشارة مهمة إلى المجتمع الإنساني خلال ذكر آداب المجتمع أن ما تتكلمون به من كلمات يجب فيه أخذ الحذر والحيطة، وكونوا مثل الرجل العاقل المتواضع، ولا تسرعوا في أي أمر، وإذا اطلعتم على شيئ كان موضع النقد فلا تفشوه على عجل، لئلا يحدث سوء ظن كان مبعث خسارة، وإذا جاءكم رجل بنبأ أو حكى قصةً، أو أخبر أن فلاناً يقول عنك شيئاً، وإن كان الأمر خلاف ذلك، فبدون تبين الأمر يمكن أن يصدر من السامع شيئ كان ضاراً، ثم يصبح على ما فعل نادماً، فصرَّح القرآن الكريم بهذا أن رجلاً مرتكب الكبائر علناً، كاذباً يقول باطلاً في كل

مناسبة، ولا يأخذ بالحيطة في أمرٍ، إذا أخبرك بشيئ فلا تصدقه، حتى تتبين، ولا تنفذه فعلاً، لئلا تواجه خجلاً بعد تبين الأمر.

مرض عام في العصر الحاضر:

يقع كثير من أمثال هذه الحوادث في مجتمعاتنا بحيث يثق الإنسان بالنبأ الذي وصله إليه من دون بحث، ثم يعرف أنه كان باطلاً، رغم الإجراءات التي صدرت بعده مع إنسان بريئ، مبنية على سوء التفاهم لا يمكن استدراكها، قد دخل في طبائع الناس اليوم أنهم يذكرون الآخرين في مجالسهم لمجرد متعة نفسية، فيحبطون أعمالهم بجهالة، هذا ما يُعرف في الإسلام بالغيبة، فالغيبة هي ذكرك أخاك بما يكره، ليس معنى الغيبة أن يتهم الانسان أحداً، وهو يعرف بالتهمة، وقد حذرت الشريعة منهما، وقد عم مرض الغيبة في مجتمعنا كثيراً، يخسر كثير من الناس حسناتهم تسليةً، هذه سنة الله في الأرض أن من اغتاب أحداً أعطيت حسناته من نال من عرضه، وإذا كانت حسناته قليلة حملت معاصيه على المغتاب، كأن عملنا الذي كان للتسلية فقط بلغ من فداحته بحيث أحبط آخرتنا، وأضاع ما كسبنا من الحسنات القليلة المقدار على سبيل الصدفة، إذا تدبرنا قليلاً عرفنا أننا نضيع حسناتنا عبثاً، فنكون في الآخرة صفر اليدين، وأعطيت حسناتنا الآخرين، رغم أننا كسبنا من الحسنات كثيراً.

نبه القرآن الكريم إلى عدم الثقة بأنباء هذا النوع من الناس غير الحذرين، وأمرهم بالتبين، لأن أمثال هؤلاء الناس ربما

يقدمون كلامهم مزخرفاً ومزوراً، ويجعلون الكلام المشين كلاماً صافياً، فيشتعل منه الناس، ويباشرون عملاً قادحاً بجهالة، فلا تكون نتيجته حسنةً، ويتأسفون طول حياتهم.

فداحة عدم التبين:

وردت في كتاب "كليلة ودمنة" أشهر كتب بالعربية قصة، تبيِّن أن الإنسان إذا أقدم على أمر بدون تبين الأمر خجل وندم، ولا يجد له حلاً للخروج منه، والقصة على ما يأتي: إن امرأة ولدت غلاماً جميلاً، ففرح به أبوه، وبعد أيام حان لها أن تتطهر، فقالت المرأة للناسك: اقعد عند ابنك حتى أذهب إلى الحمام، فأغتسل، وأعود، ثم إنها انطلقت إلى الحمام وخلفت زوجها والغلام، ولم يلبث أن جاءه رسول الملك يستدعيه، ولم يجد ما يخلفه عند ابنه، غير ابن عرس داج عنده، كان قد رباه صغيراً، فهو عنده عديل ولده، فتركه الناسك عند الصبي وأغلق عليهما البيت، وذهب مع الرسول، وخرج من بعض أجحار البيت حية سوداء، دنت من الغلام، فضربها ابن عرس، ثم وثب عليها فقتلها، ثم قطعها وامتلأ فمه من دمها، ثم جاء الناسك وفتح الباب، فالتقاه ابن عرس كالبشير له، بما صنع من قتل الحية، فلما رآه ملوثاً بالدم، وهو مذعور، طار عقله، وظن أنه قد خنق ولده، ولم يتثبت في أمره، ولم يترو فيه، حتى يعلم حقيقة الحال، ويعمل بغير ما ظن ذلك، ولكن ضرب ابن عرس ضربة بعكازة، كانت في يده على أم رأسه، فمات، ودخل الناسك، فرأى الغلام

سليماً حياً، وعنده أسود مقطع، فلما عرف القصة، تبين له سوء فعله في العجلة وضرب على رأسه، وقال: ليتني لم أرزق هذا الولد، ولم أغدر هذا الغدر، ودخلت امرأته، فوجدته على تلك الحال، فقالت له: ما شأنك؟ فأخبرها بالخبر من حسن فعل ابن عرس، وسوء مكافأته له، وقالت: هذه ثمرة العجلة، فهذا مثل من لا يتثبت في أمره، بل يحقق أغراضه بالسرعة والعجلة[1].

ملاحظة:

تقع أمثال هذه الحوادث في المجتمع الإنساني، فلا بد من الاعتبار والاتعاظ بها، ولا ننفذ شيئاً مبنياً على نبأ مبهم وخطأ، بل ننفذ كل عملية بعد تبين النبأ.

وقال الله تبارك وتعالى: (يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ).

خطاب موجه إلى المؤمنين:

وَاعْلَمُواْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (الحجرات: ٧).

ذُكر في الآية السابقة أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بكلام رجل على عجل، فيقول الله تعالى في هذه الآية بغاية من التأكيد: إنه لا يناسب أن يأتي رجل ويخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

---

[1] باب الناسك وابن عرس: كليلة ودمنة ص: (٢٢٨–٢٢٩).

أمر، لأن أحداً إذا عمل هذا العمل على سبيل المزاح ونشأ في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئ عنه حبط عمله، فمعنى قول الله تعالى: لاحظوا أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس بشراً عاماً، بل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه إن أطاع في كثير من الأمر وقعتم في مشقة، ولحق بكم ضرر، وإذا ساء رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل لزم به ضرر، ذات يوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، وكانت حجراته متلاصقةً بالمسجد، وكانت تتكلم به أم المؤمنين السيدة صفية رضي الله عنها في ظلام الليل، وكان المسجد مفتوحاً، فإذا بصحابي مرَّ على مسافة، ناداه رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوت: وقال: هذه زوجتي[1]، رغم أن أحداً لايمكن أن يتصور عنه شيئاً، بحيث يقوم مع امرأة أجنبية في ظلام الليل، لكن الإنسان إنسان، يمكن أن ينشأ في ذهنه شيئ، فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم، وبين أمامه حقيقة الأمر، لأنه إن خطر في ذهنه شيئ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاع إيمانه، فإن تصور شيئ قادح في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ينذر بخطر كبير.

---

[1] عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مع امرأة من نسائه، فمرّ برجل، فقال: يا فلان! هذه امرأتي فلانة، قال: يا رسول الله! من كنت أظن به فإني لم أكن أظن بك، فقال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم (شعب الإيمان للبيهقي: ٦٧٩٩)، وفي رواية مسلم: مرّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: على رأسكما، إنها صفية بنت حيي (٥٨٠٨).

مرة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب من المسجد فرأى صلى الله عليه وسلم رجلاً نائماً، فقال لعلي: أيقِظه، فأيقظه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم سأل علي رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله! أنت تسابق في الخيرات، فلماذا ما أيقظته؟ قال: فإن لم يستيقظ على إيقاظي للصلاة لكان ذلك كفراً[1].

عُلم منه أنه لا ينبغي جحود كلام النبي صلى الله عليه وسلم سهواً أيضاً، وكذلك عُلم أن هذا العمل إذا كان مكروهاً فكم يكون تصور شيئ في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم شديداً، وإذا وقر شيئ عن أحد في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حبطت آخرته، فقال: اعلموا أن فيكم رسول الله يأتي إليه الوحي، وله عظمة ومكانة عند الله، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم، ثم قال عن صحابته صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى أنعم عليكم بأنه هداكم، فتعيشون حياتكم مؤمنين بالله إيماناً كاملاً، وحبب إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم، ورباكم تربيةً، لا تقضون أمراً ضد إيمانكم، هذا فضل من الله عظيم، إنه زين الإيمان في قلوبكم بحيث إنكم تلاحظون في كل شيئ مقتضى الإيمان، وحب الله تعالى وحُبَّ رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا تؤثرون إلا ما أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلا تحول دونكم أهواؤكم، بل تكون خاضعةً لكم، وتلاحظون في كل حال

---

[1] التفسير الكبير للإمام الرازي، سورة القدر.

متطلبات الإيمان، فقد كرّه الله تعالى إليكم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلها مكروهةً فتكرهها قلوبكم، فانقلبت أموركم بحيث لا تحبون شيئاً ضد إيمانكم، لأن الله تعالى قال في آخر الآية: أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ، فهم متكاملون خلقاً وسلوكاً. وهم على درب صحيح من الحياة[1].

وردت في هذه السورة توجيهات لإصلاح كل شيئ من شئون الحياة على كل مستوى، ذكر فيه أساسياً أن الإقرار بعظمة الله تعالى والاعتراف بمكانة رسوله واجب شرعاً، فلا يجوز معه تعامل المساواة، إنه من عباده المصطفين الأخيار، ينزل عليه القرآن، فقدِّموا له آيات التبجيل والاحترام، فلا يجوز أن تعاملوا معاملة عامة بالنسبة إلى أخلاقه الحسنة، وكان من دأبه صلى الله عليه وسلم أنه يجلس حيث ينتهي به المجلس، وكان هذا خلقه، فعلى كل مسلم أن يأخذ الحذر لأن النبي صلى الله عليه وسلم حينما اعتُبر عظيماً فلا ينبغي أن يجادل معه أحد أو يناقشه مناقشة العامة، ولا ينتقد آراءه.

العمل برأي الصحابة رضي الله عنهم:

كما سبق آنفاً أنه كان من طبيعة العرب أنهم يعتبرون أنفسهم

---

[1] يقول الإمام محمد أشرف علي التهانوي: البلاغة في قوله: كَرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان في مقابلة الإيمان المحبب والمزين إشارة إلى أن الإيمان المحبب المزين أي الكامل ما لا يكون فيه كفر ولا فسق ولا عصيان أي ما يكون فيه التصديق بالجنان والعمل بالأركان والإقرار باللسان (بيان القرآن، تفسير سورة الحجرات).

أفضل من الآخرين في كل شيئ، فغيّر القرآن الكريم طبيعتهم هذه رويداً رويداً، لئلا يتدخلوا في أحكام الله تعالى بآرائهم، فتارةً يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعمل بشيئ مراعاةً للآخرين، فيخسرون خسارةً واضحةً.

وأحسن نموذج في هذا الأمر غزوة أحد، فقد أشار بهذه المناسبة الصحابة الذين لم يحضروا غزوة بدر على النبي صلى الله عليه وسلم للقتال، خروجاً من المدينة المنورة، لأنهم أكثر عدداً من غزوة بدر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرى عدم الخروج من المدينة مناسباً للقتال، فكان من السهولة واليسر أن يمكث الصحابة في بيوتهم، وإذا جرى القتال على بعد من ثلاثة أو أربعة كيلو مترات من المدينة كان المسلمون مثل الكفار في ساحة عامة، فكان القتال في المدينة أكثر تأثيراً من قبل، لكن كثيراً من الصحابة ممن لم يحضروا في غزوة بدر، كانوا يظنون عنها أنها جبهة صغيرة، وكان فيها منع كتيبة صغيرة من الكفار، فمن يتيسر له الخروج فليخرج، فالصحابة الذين كان قد شغلهم أمر لم يحضروا هذه الغزوة، وخرجت كتيبة تشتمل على ثلاث مأة وثلاثة عشر رجلاً لمنع جيش الكفار، وبما أن الكفار كانوا في عدد هائل، وكان عدد المؤمنين قليلاً، لكنهم ثبتوا كالجبال الراسيات في هذه الساعات الحرجة، فاستحقوا نصر الله تعالى، ونالوا الفتح المبين، وتلقوا بشارة مغفرة الذنوب، فالصحابة الكرام الذين لم يحضروا غزوة أحد يصرون على الخروج من المدينة المنورة لنيل جوائز القتال

وإظهار إسلامهم، فنظراً إلى عواطفهم الإسلامية أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج من المدينة للقتال، ودخل البيت للإعدادات الحربية، فقال بعضهم للذين يؤثرون الخروج للقتال: رأيكم هذا ليس بحسن، فإذا كان رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال من داخل المدينة فلا ينبغي أن يقهر عليه، فخرج رسول الله لابساً الدرع، فقالوا: يا رسول الله! رضينا برأيك، إن شئت قاتلت من داخل المدينة، وإن شئت خرجت، قال صلى الله عليه وسلم: إن النبي إذا لبس الدرع لا ينزع، فلا يكون القتال إلا من خارج المدينة[1].

وكان أحد أسباب هزيمة المسلمين الظاهرة في غزوة أحد أن المؤمنين أعجبوا بقوتهم، رغم أن الإيمان يتطلب من كل مؤمن دائماً أن يعتقد أن الله هو المؤثر الحقيقي في كل شيئ، وأن الوسائل من صنع الإنسان، فلا تعتبر هذه الوسائل غايةً، بل يتوكل على الله تعالى حق توكله باستعمال هذه الوسائل، هذا هو المطلوب، وإذا كان النجاح مقدراً من الله تعالى بدون استخدام الوسائل والأسباب، فما كانت الحاجة إلى قتال وحرب، بل ينزل من الله تعالى شيئ يكون فيه هزيمة نكراء للمشركين، ولم يضطر المسلمون إلى القتال، ولم يحتاجوا إلى إعدادات هائلة، فلم يؤكد الله تعالى

---

[1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه (مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج ٣/ ٣٥١، رقم الحديث: ١٤٨٢٩).

نصره منه، بل أمر بالقتال كما كان الكفار في الميدان، وقال: استخدموا المواهب الإلهية والعزائم الربانية، واعتمدوا على الله تعالى، وبما أن المؤمنين قد وثقوا بعددهم كثيراً نتيجة انتصارهم في غزوة بدر، وأيقنوا بأن النصر لهم، كأنهم قالوا: حينما كنا في بدر ثلث عدد الكفار هزمناهم فنحن أولى بأن نهزمهم ونتغلب عليهم، فكان هناك أمران: أحدهما أن المسلمين أعجبوا بعددهم، وأيقنوا بأنهم سينتصرون على الكفار، فيسمون غزاة مجاهدين، وثانيهما: أنهم أصيبوا بندامة وخزيان نتيجة عدم امتثال النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك قال الله تعالى: لا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تطمعوا من الرسول أن يطيعكم، وإلا تقعون في مشكلة، لأن النبي والرسول لا يتكلم من عند نفسه، بل هو وحي يوحى إليه، فكل ما يقول النبي يكون من الله منزلاً أو موحى إليه، فذكر القرآن الكريم آداب الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم مفصلةً، وكان الصحابة من خلال هذه التوجيهات الإلهية يوقرون النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً، فقد ورد عن أبي بكر رضي الله عنه أنه كلما تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم خفض صوته وتكلم بكل أدب واحترام، وكذلك كان الصحابة يتأدبون في الكلام، لئلا يكون سوء أدب مع النبي صلى الله عليه وسلم في أي حال، فمدحهم الله تعالى في القرآن بهذه الكلمات: أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (الحجرات: ٣).

المنعم الحقيقي:

فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (الحجرات: ٨).

بعد ما مدح الله تعالى إيمان الصحابة ذُكر في هذه الآية أن معهم فضلاً من الله ونعمة بحيث يكرهون كل شيئ سوى الإيمان، لكن فيهم رجالاً يرغبون في أمور تنافي الإيمان، وإذا لم يكن فضل الله تعالى فما كان أبو بكر صحابياً، ولا أبو لهب من أهل جهنم، إن أبا لهب كان عماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنه دخل جهنم، وكان أبو بكر أحد رفاقه وأترابه، إلا أن الله تعالى اصطفاه لصحبة نبيه وحمل رسالته إلى الناس، كأنه كان من فضل الله تعالى ومنه وكرمه عليه، فلا يظن أحد منا أنه يحمل مكانةً خاصةً، لم ينل أحد هذه النعمة بجهده، إنما نالها بتوفيق من الله تعالى، فلا يغتر بأني أحمل هذه الميزة، وهذه الصفة، وهذه الفضيلة، لأن جميع الفضائل موهوبة، وإذا غضب الله تعالى—لا قدر الله—فإنه يقدر على سلب نعمته، وقد وقع مراراً أن الله قد سلب من أصحاب التقوى، المتدينين كل فضيلة، وغادروا الدنيا صفر اليدين، فعلم منه أن لا يغتر أحد بشيئ منه، بل عليه أن يشكر الله كل حين وآن، لأن جميع ما أكرمنا به من النعم ليس بجهدنا، بل إذا شاء الله تعالى أن ينعم على أحد أنعم عليه بدون استحقاق، وأحياناً يحدث أن الإنسان يتحدث عن نعمة: هذا من جهدنا، فيكره الله كلامه، ويسلب جميع نعمه، فلا بد أن يكون في قلب كل إنسان أن جميع ما منح من نعم، إنما كان بدون

استحقاق، وناله من فضله، وليس لسعيه أي دخل فيه، وإذا كان وراء السعي توفيق من الله أثمر السعي، وأصبح ذريعةً محضةً للوصول إلى الغاية، فقد ذكر أن جميع فضائل أهل الايمان من فضل الله وكرمه، والله عليم حكيم، وهو يعلم من أحق بنعمه، ومن أولى بمنه وفضله، ومن يستحق بالملاطفة والعطف، ومن ينال حقه، ومن لا يستحق فضله لا ينال فضله، ومن يكون محبوباً عند الله بصالح أعماله يستحق فضل الله تعالى، كل ذلك يتوقف على فضل الله تعالى وعلمه وحكمته.

درس الصلح والإنصاف:

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُواْ الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (الحجرات: ٩—١٠).

والشيئ المهم الآخر بعد تقوية العلاقة بالله تعالى أن تكون علاقات المؤمنين فيما بينهم مثل الإخوة، واعتبر الإسلام جميع المؤمنين إخوةً، فأمر أن تكون علاقتهم على أساس الحب والإخلاص، وليس معنى الأخوة إلا أن يعامل الإنسان معاملة الأخ للأخ، ويؤدي حقوقه، ويتفادى من الخلافات والنزاعات، ويتفق كلاهما على كلام واحد، وإذا كانت الحاجة إلى التنازل عن رأي فعليه أن يتنازل عنه، لأنه إذا أصر على رأيه فلا تتمثل

الوحدة والتضامن في المجتمع، فلا بد من ضغط رأي والتنازل عنه لإنشاء جو الوحدة والتضامن، ومن أسباب الفوضى والاضطراب اليوم في العالم أن كل إنسان يصر على رأيه، فيتصادم، وفي كل مكان انقسم الناس إلى فريقين، ولا يتنازل أحد عن رأيه، فينشأ اختلاف ثم يتصادم رجلان، فالفريق الذي يكون قوياً يجبر الآخر قسراً على رأيه، فتبتعد قلوب فريق عن الآخر، لذلك ركز الله تعالى على هذا الجانب أن من دأب المؤمنين أن يراعوا المصلحة، وإذا حدث بينهم شيئ من النزاع فعليهم أن يقهروا رأيهم، وإذا تفاقم الأمر واشتد الخطب فعليهم أن يختاروا أسلوب المصالحة، وإلا كان الأمر ينتهي إلى الاضطراب والخصام[1].

عصبية الرأي:

حاول المنافقون في المدينة لتوجيه التهمة إلى عائشة رضي الله عنها، حينما بلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع جميع الناس في المسجد وسأل: ماذا هذه القالة التي بلغتني عنكم في المدينة المنورة، وأنا أعلم بأهل بيتي، فلماذا تصدر أراجيف وإشاعات غير مرضية، ونحن لا نعتبرها صحيحةً، فقام رجل من

---

[1] قال الإمام التهانوي رحمه الله: البلاغة: اقتتلوا، وكان الظاهر اقتتلتا، والعدول إلى ضمير الجمع لرعاية المعنى، فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة، فقدر رُوعي في الطائفتين معناهما أولاً، ولفظهما ثانياً على عكس المشهور في الاستعمال، والنكتة في ذلك ما قيل: إنهم أولاً في حال القتال مختلطون، فلذا جمع أولاً ضميرهم، وفي حال الصلح متميزون متعارفون فلذا ثني الضمير (بيان القرآن: تفسير الحجرات).

قبيلتي المدينة المشهورتين: الأوس والخزرج، وقال: إذا كان الرجل الذي يتكلم بمثل هذه الأحاديث من قبيلتنا قتلناه، وإذا كان من فرع إخواننا استأذنا منهم للقتل، هذا الكلام لم يحبه رجال قبيلة أخرى، فأثرت فيهم العصبية التي كانت شائعةً بينهم في الزمن الجاهلي، ولا سيما في الزمن الجاهلي كانت حروب هاتين القبيلتين مشهورةً شائعةً، فثار رجال قبيلة أخرى، وقالوا: كيف تقتلون رجلاً منا؟ فكل ما يكون بيننا نتفاهم ونتصالح، وحينما احتدم الكلام في المجلس انفض المجلس نظراً إلى خطورة الموضوع، لئلا يتخاصم الناس فيما بينهم.

ويمكن في الخصومات الداخلية أن يصاب الإنسان بعصبية الرأي، وعصبية الرأي شيئ خطير، وانتهاؤها صعب، لذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: إذا تخاصم رجلان فليسع كل واحد في الصلح، وإذا لم يرضيا، فليقض بينهما قاض، ومن لا ينقاد للقضاء فليكن ضده إجراء صارم، ليبق التضامن في المجتمع، وهذا الإجراء لا يتم إلا إذا كانت حكومة إسلامية، لأنها مسئولة عن العقاب، ولا يستطيع عامة الناس أن يستعملوا قوتهم، إلا أنهم يستطيعون أن يفضوا القضية بين فريقين، بإرضائهما على أمر آخر، ويبعدوا الناس من الخصومات، إلا أن الرجال الذين لا يدركون الأمر بجدية وفهم، ورد عنهم: لا يجوز استخدام القوة ضدهم ما لم يتفقوا على القضاء الذي كان موافقاً لأحكام الله تعالى، فإذا استعدوا للصلح فالصلح أولى لهم وأحسن، وليكن

الإنصاف في أمورهم، وتقوى الله في قلوبهم، والحيطة والحذر في شئونهم، وإذا جرى إجراء قانوني فلا يخالف ذلك حقو ق الله تعالى، لذلك قيل: اتقوا الله، لعلكم ترحمون، ولا تنزل رحمة الله تعالى إلا على الذين يضحون بتسهيلاتهم ومرضياتهم في سبيل الله تعالى، وهذا ما يقتضي إيماننا أن نملك أنفسنا ونقهر شهواتنا حينما يأتي أمر من الله تعالى.

الأمراض الخلقية:

يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (الحجرات: ١١)

ذُكرت في هذه الآية بعض الأمراض الاجتماعية المهمة، كما يكون الناس في المجتمع الإنساني متحابين، ومتلاطفين، ويتصل بعضهم ببعض على سبيل القرابة، فيجب الاحترام بينهم، ويُعتبر توجيه الطعن والنقد ومخاطبة رجل باسم غير مناسب يشعر به صاحبه سُبةً وعاراً، فنهي المؤمنون في هذه الآية بكل صراحة عن اقتراف أمثال هذه الأعمال، لأن الإنسان ربما يعلّق على أحد أو يقول جملةً عنه يظن بها إساءة إلى نفسه، أو يستهزئ بكلام أحد، فيشعر ذلك الإنسان بإهانته، ويعتبر الرجل المستهزئ نفسه كبيراً، وتكون جميع هذه الأعمال الخاطئة دليلاً على أنك تعتبر الرجل ضعيفاً، وتظن أن ذلك الرجل لا يضر بنا شيئاً، ونحن أحرار في

أعمالنا ونشاطاتنا، واستعمال كلماتنا، إذا شئنا أطلقنا عليه كلمة " قصير القامة "، وإذا شئنا سميناه " طويل القامة "، وهذه عادة إنسانية أن كل إنسان يفكر في انتقاد رجل، ولا ينظر إلى عيوبه ومساوئه، لذلك قال الله تعالى: بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ، لأن الإيمان يعتبر كل إنسان سواءً، وينهى عن استهزاء أحد، فإنَّ هذه العادات نوع من الكبر والغطرسة، ولا ينظر الإنسان عيوبه، ويمكن أن الرجل الذي تعتبره وضيعاً كانت مكانته عند الله رفيعةً، وكان من حب الله تعالى وتقواه بمكان إذا حلف بالله على أمر لأبره الله تعالى، كما جاء في الحديث الشريف: كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره[1]. ربما يكون الإنسان في لباس لا يكون جميلاً، ويُرى من بعيد خرقاً، لو أقسم بالله في مجلس لأبره الله تعالى، فعرفنا منه أن الرجل الذي نظنه حقيراً، ونسخر منه، كان كتابه يوم القيامة ثقيلاً في الميزان.

حكمة النهي عن الأمراض:

وقد نهيت النساء بصفة خاصة عن الطعن في الأعراض، والتنابز بالألقاب، لأن هذه الأمراض توجد في النساء كثيراً، حيثما يكنَّ فارغات فلا يكون لديهن عمل سوى الطعن في الأعراض، فتكون عندهن إمكانات لمثل هذه الأعمال، فنهين عنها خاصةً، قال الله تعالى وهو يخاطبهن: وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ، لأن الرجل الذي يُستهان يمكن أن

---

[1] سنن الترمذي: ٣٨٥٤.

تكـون درجتـه رفيعـةً عنـد الله تعـالى، فاحـذروا في اسـتعمال هـذه الألقـاب الـتي تسـيئ إلى أحـدٍ، وورد في آخـر الآيـة: بِئْسَ الاسْـمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ، ولا علاقة لمثل هذه الأمراض بالإيمان، وهذه الأعمـال سـيئة بـذاتها، لكـن الإيمـان يزيـد مـن خطـورة هـذه الأمـراض، ثـم تـأتي مثـل هـذه الأمـراض في الفسـوق، فالـذين يؤمنـون بـالله تعـالى ويتبعـون أوامـره يجـب علـيهم أن يجتنبـوا هـذه الأمـور، ويتوبـوا مـن الأعمـال الـتي ارتكبوهـا، فـإذا بقيـت هـذه الأمراض في المجتمع أصيب المجتمع بالانحلال والفساد، وكـل يريـد الثأر من الآخر، فالرجل الوضيع الضعيف الـذي سـخرتَ منه أو ناديته بلقب خاطئ، إذا تقلد منصباً في المستقبل حـدثت في داخلـه عاطفة انتقام، وتعرضت حياتك للخطر.

كان في العصر العباسي رجل كبير الأنف، فيسخر منه كثير مـن النـاس، وإذا سـلموا عليـه قـالوا: السـلام عليكمـا (يريـدون: الرجل وأنفه)، كان هذا الاستهزاء بأسلوب لا يمكن لـذلك الرجـل أن يقول شيئاً، لأن الإنسان إذا اشتكى: من همـا الـرجلان اللـذان سلمتم عليهما؟ فيؤلون أننا ما أردنـا بـذلك أنفـك؟ بـل كـان رجـل يأتي إلينا فسلَّمنا عليه، ومن حسن المصادفة أن ذلك الرجل قد نال منصباً في الحكومـة، فتـوافرت لـه فرصـة قتـل السـاخرين مـن أنفـه فقتلـهم شـرَّ قتلـةٍ، هـذه كانـت خسـارتهم في الـدنيا، الـتي تحـدث كـثيراً، لكـن الخسـارة الأخرويـة هـي الـتي تكـون لهـذه الأعمـال ويعاقبهم الله تعالى بها.

كارثة العصر الحاضر:

لا بد لنا أن نتأمل في ضوء هذه التعاليم: كم نؤدي متطلبات المجتمع الإسلامي، فلا نقدِّر أحداً رغم ادعائنا بالإسلام، طالما لا نعتبر الأخ من الأم أخاً شقيقاً، فضلاً عن اعتبارنا الأخ المؤمن أخاً، ونتطلب فقط مآربنا، وكان من اللازم أن نعتبر إكرام أخينا إكراماً لنا، وأذاه أذى لنا، وراحته راحة لنا، لكن من الأسف أن كل رجل يتفكر في صيانة عظمته، إذا ساء كلام رجل رجلاً آخر ثارت ثورته، وكل يشعر بعظمته، وتزول منه طبيعة العفو والصفح، ومن المرجو أن تكون عندنا صفة الاحترام والتقدير، وطبيعة مراجعة رأيه، وطبيعة التفادي من الخلافات الداخلية، وطبيعة رعاية الأخ للأخ، فالحاجة ماسة إلى إقامة روابط حسنة، واجتناب الخلافات والألقاب الخاطئة والسخرية، وإقامة بيئة التضامن والاتحاد في المجتمع.

ثلاثة أمراض خطيرة:

يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُواْ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (الحجرات: ١٢)

نهي المسلمون في هذه الآية عن الظن والتجسس والغيبة، هذه هي الأمراض الخطيرة التي يصاب بها المجتمع الإنساني من الفساد والاضطراب، وتنشأ في القلوب الكراهة والبغض، قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: إياكم والظن[1]، انتشر اليوم هذا المرض كثيراً، يطعن الإنسان في عرض أخيه من دون تردد: ويمكن أن ذلك الرجل قد عمل هذا العمل تحقيقاً لبغيته، ويمكن أن ينشأ ذلك لهذا الغرض، وغير ذلك من الكلمات، لقد تعوَّد الإنسان على استخراج مفهوم خاطئ من كلام كل رجل، فقد قال الله تعالى: اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ، لأنك تصاب بخطأ في الظن مراراً، فتصدر منه نتائج سيئة، مثلاً قال لك رجل كلمة خير، وأنت حملته على سخرية بدون سبب، وأيدت ظنك هذا بقرائن أخرى، فكانت نتيجته أنك تبتعد منه، لعلك تظن أن ذلك الرجل قد قال مثل ذلك، لأنه لا يظنُّ بي خيراً، وبذلك تنشأ في قلبك كراهية من أخيك المؤمن من غير أساس.

العلم عبارة عن معرفة الحقيقة، والظن عبارة عن الخيال الإنساني والحدس والتخمين، كلنا يعرف أن النار تحرق، فلو أجبرنا أحد ضرباً على الاعتقاد من أن النار لا تحرق فلا نعتقد أن النار لا تحرق، لأننا نعرف عنها حق المعرفة، لكن إذا تجول أحد أمامنا، ورجع، فلا نعرف عنه علماً حقيقياً أنه لماذا تجول ورجع، فلا يعتقد إنسان عنه رأياً قطعياً، بل يظن عنه حدساً وتخميناً، ويتخيل أخيلة مختلفة في ذهنه، تارة يظن أن له عملاً هنا، فيتجول، وتارةً يظن أن له كراهةً منا، فأعرض عنا، هذا هو ما يسمى بالظن بأن الرجل يقيس من ذهنه أن ذلك الرجل قد عمل

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر.

هذا العمل، طالما يضر هذا الشيئ بنفسه، كما سبق من قبل أن رجلاً قد قتل ابن عرس اعتماداً على ظنه، ثم تأسف، لذلك اعتنت بهذه الأمور الشريعة الإسلامية، حتى قال صلى الله عليه وسلم: كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع[1]. معناه أن الإنسان نُهي عن نقل كل ما سمع من كلام، فيمكن منه الخطأ في النقل، وإذا حدث هذا الكلام أمام رجل فينشأ في ذهنه نوع من الاضطراب، فكانت النتيجة سوء الظن، رغم أن الناقل لم ينقل هذا الكلام إلا للمتعة والتسلية، فنهي الإنسان عن نقل مثل هذا الكلام، فإذا لم ينقل مثل هذا الكلام فليس هناك خطر، وإذا نقل تفاقمت أخطار، فالأسلوب الأحسن أن الإنسان إذا لم يكن عنده علم يقيني عن شيئ فلا يذكر أمام أحد، ويحذر منه كل الحذر.

التجسس:

وقال في هذه الآية: ولا تجسسوا أي لا تبحثوا عن أخطاء الناس، لأن الإنسان إذا كان في وسعه البحث عن عيوب الناس فيرغب فيه ويجتهد، ويقول أمام الآخرين: إن الرجل الفلاني ارتكب هذا العمل، وماذا تقولون عن الرجل الفلاني؟ وإن كان ذلك الرجل قد ارتكب هذا العمل، فما يضرك هذا؟ وهو مسئول عند الله عن هذا العمل، لستَ أنت مكلَّف للطعن في عرض أحد، أو تتبع عورات الآخرين، لأن تتبع عورات الآخرين والتماس مواضع الضعف فيهم يضاد الإيمان، وإذا كنت أميراً للمسلمين

---

[1] صحيح مسلم: رقم الحديث: ٧.

فأنت مسئول عن إخبار خطأ رجل، لأن الأمير مخيَّر في الحكم على أحد، وليس وراء ذلك حق لرجل أن يجهر بسوء رجل آخر، أو يتتبع عورته، فإن تتبع عورة شخص ذنب، وذكر ذلك العيب أمام الآخرين ذنب كبير، ويسمى بالغيبة، كأن التجسس يذهب بالناس إلى الطريق السيئ، فلا بد لنا من أن نجتنب منه كل الاجتناب.

الغيبة:

ورد في هذه الآية بعد التجسس النهي عن مرض، وهو يأتي في الترتيب بعده، ونحن مصابون به، قال الله تعالى: وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً. ومعنى الغيبة: أن يذكر الإنسان عيوب رجل آخر، وهذا نوع من الذنب، وعقابه أيضاً شديد، وكما سبق من قبل أن الرجل إذا اغتيب في عرضه يوضع يوم القيامة في كتابه من حسنات المغتابين، وإذا لم تكن عندهم حسنة يحمل عليهم سيئات الرجل الذي اغتيب، ولا شك أنه خسارة كبيرة، لا نلتفت إليها شيئاً، ونحن نطعن في أعراض الآخرين متعةً وتسليةً، ونضيع حسناتنا عفواً، فالحاجة إلى أن نحذر من ذلك كثيراً، لئلا تكون هذه المتعة سبباً لهلاكنا وتعاستنا.

مثال قرآني للغيبة:

ضُرب مثال للغيبة في القرآن الكريم من أكل لحم الأخ الميت، وكل ما نقوم به من عمل جعله الله تعالى ذا وجهين، كما يكون للعملة النقدية جانبان: في جانبها الأول شيئ، وفي جانبها الآخر شيئ، كذلك يكون لأعمالنا وجهان: وجه لا نراه ولا

نشاهده، ووجه نراه ونشاهده، مثلاً نحن نتكلم، فنعلم أن صوتنا يصل من مكان إلى مكان آخر، وإن صوتنا هذا يدخر في مكان آخر، وهو أن الكرام الكاتبين على عواتقنا يسجلون كل شيئ، هذا نظام داخلي، ويحاسب به الإنسان يوم القيامة، ويمكن أن يفهم هذا بمثال آخر: إن الربا في حرمتها وخبثها تشبه النجاسة، لكن صورتها الظاهرة في الدنيا تشبه وسيلةً من وسائل الحياة، ينتهز بها الإنسان في حياته الدنيوية، ولا تظهر في الدنيا صورتها الداخلية، (وهي النجاسة)، لأن الله تعالى جعل الدنيا دار امتحان، فإذا أكل الإنسان الربا أو استعمل الكسب الحرام واستمتع بزخارفها وظهرت صورتها الباطنة يوم القيامة عرف أنه أكل كميةً كبيرةً من النجاسات، لأن الصورة الأخرى لهذه الأعمال تجتمع باستمرار في الآخرة، فتتمثل الصورة الحسنة للأعمال الصالحة، والصورة السيئة للأعمال الخبيثة، كذلك شأن الغيبة، فإن الإنسان يتلذذ بالغيبة، لكن القرآن الكريم قد مثَّل الغيبة بأكل لحم الأخ الميت، فإن رجلاً إذا اغتاب أحداً فكأنه يأكل لحم أخيه الميت، وهذه عادة خبيثة إذا عرفها الإنسان حق معرفتها كرهها وتقزز منها، وبما أن علمها يرتبط بالآخرة فلا يدرك الإنسان خطورتها، وشناعتها، ولا يعلم كيف تكون صورتها في الآخرة، وكم أكل من لحم أخيه الميت، فيعاقب في الآخرة كما مرَّ آنفاً، ويكون كتاب المغتاب صفراً خالياً.

ربما يخبر الله تعالى من خلال بعض قصصه بأن شيئاً يكون في

ظاهره جميلاً حسناً وفي طعمه لذيذاً، لكن يكون في باطنه فاسداً، ذات مرة حضرنا مأدبةً، كانت فيها بعض الحلاوي، وكان من فضل الله أننا لم نأكل هذه الحلاوي، لكن بعض الرجال الذين حضروا في المأدبة أكلوا بكل رغبة، وقد علمنا من بعد أن هذه الحلاوي كان فيها فساد، فالذين أكلوا هذه الحلاوي أصيبوا بمرض، فكانت هذه الحلاوي في ظاهرها جيدةً، لكن كم كانت ضارةً في باطنها لم يعلمها أحد، كذلك حينما نغتاب فنتلذذ ظاهراً، لكن كم تحمل الغيبة من خسارة فادحة لا نقدرها، وأحيانا مثَّل الله تعالى أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة الأعمال، لذلك ورد في بعض الروايات: أن رجلاً قد اغتاب كثيراً، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: اذهب، ونظِّف فمك، فإني أرى في فمك قطعاً من اللحم.

أساس كل عمل:

أساس امتثال كل ما أمر الله به، واجتناب كل شيئ نهى الله عنه أن يكون الإنسان خاشعاً لله، فقد جاء في آخر الآية اتقوا الله، اتقوا محاسبة الله، فإن الله تعالى يحاسب شديداً يوم القيامة، فلا بد لكم من أن تحذروا كل الحذر، ليكون حسابكم يسيراً، فإن الله تواب رحيم.

درس المساواة في القرآن الكريم:

يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً

وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات: ١٣).

خُوطب المؤمنون في الآيات السابقة بالتحلي بالحضارة الإيمانية وأخبروا بأن الإسلام والإيمان ليسا عبارةً عن العبادات فقط، بل هما عبارتان عن صوغ الحياة في قالب رضا الله تعالى، فإن الإنسان إذا آمن بالله تعالى صار أخاً لمؤمن، فيكون سائر المؤمنين مثل أسرة واحدة، وهي تُسمَّى بأسرة إيمانية، وهذه الأسرة الإيمانية تفوق الأسر العرقية، لأن أفراد هذه الأسرة لا يتخاصمون فيما بينهم، رغم أن الأسر العرقية والقبائل النسلية لا يبتعدون عن ذلك، فتكون لديها جماعات مختلفة وفِرق متنوعة على أساس النسل، واللسان والنسب، وتجري صراعات داخلية وخصومات شاحنة، ثم اعتداءات واضطهادات، فإن القوي يغلب الضعيف، ويغمط الغني حقوق الفقير، وسبب هذا الفساد أن الناس يتشاحنون فيما بينهم منقسمين في قبائل وشعوب شتى، فالأبيض يحتقر الأسود، وصاحب المنصب يحتقر الرجل العادي، والأسرة ذات الشخصيات الكبار تحتقر الأسرة التي فقدت هذه الشخصيات.

ردَّ الله تعالى على هذه النزعات في هذه الآية من سورة الحجرات بقوله: إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، معناه أن جميع الناس أولاد أب واحد وأم واحدة، لا يفوق رجل رجلاً آخر، وإن ما رسمه الناس من صور للتفاضل باطل، فلا بد من محو هذه الاعتبارات، ويقتضي إيماننا أن نبتعد عن الأمور التي تكون سبب

الخلاف والصراع، وهذا لا يمكن إلا إذا وافينا متطلبات الإيمان، وأنشأنا عواطف حب الله تعالى في قلوبنا، ولم نكن مقصرين في أداء أوامر الله تعالى من حقوق العباد، وكنا بعيدين عن الغيبة والطعن واللمز والهمز، وفكرنا في إصلاح شئوننا، وسعينا في صناعة مستقبلنا، ولمسنا عيوبنا قبل أن نلمس عيوب غيرنا، واعتقدنا أننا إذا لم نترك الخصام والغيبة وغير ذلك من الأمراض رغم ما عملنا من أعمال الخير، اضطررنا يوم القيامة إلى أن نعطي الآخرين حسناتنا، ونكون صفر اليدين رغم حسناتنا ونشاطاتنا الحسنة، وعلينا أن لا نعتبر أنفسنا أفضل من أحد، لأن الإنسان لا يغتاب أحداً، ولا يطعن في عرضه ولا يتنابز بالألقاب إلا إذا فضل نفسه على آخر، فأبطل القرآن جميع أشكال التفاضل، وقال: لا تفاضل لأحد على أحد، والناس من آدم، خلقهم الله عز وجل من ذكر وأنثى، إلا أنه جعلكم في شعوب وقبائل مختلفة، فليس سبب ذلك بيان التفاضل بينكم، أو بسبب ميزتكم الخاصة، بل لأن تعارفوا، فكما أن الدولة تنقسم إلى الولايات، والولايات تنقسم إلى المدن، والمدن تنقسم إلى أحياء، وغاية هذا التقسيم أن تتوافر سهولة ويسر بين الناس في التعارف وإدارة النظام، كذلك يسمى كل إنسان باسم، ليعرف به، وإلا كان الكلام منه صعباً بدون ذكر اسمه، لأن الإنسان إذا سأل عن رجل، واستعمل لفظ الرجل الفلاني، والشخص الفلاني استصعب الأمر، وصار معقداً، لكن إذا ذُكر اسمه فالذين يعرفونه يخبرون عن ذلك الرجل وبلده وحيِّه، كأن

هـذا التقسـيم نـوع مـن السـهولة والتعـارف، كـذلك وزَّع الله تعـالى النـاس في جماعـات، ليسـهل التعـارف منـه والوصـول إليـه، ولـيس معنـاه أن الرجـل الفلانـي أفضـل مـن الرجـل الفلانـي، والشـخص الفلانـي أحقـر مـن الشـخص الفلانـي، فهـذا التقسـيم للتعـارف والاتصال فقط، لكن ورد مع ذلك قوله تعالى: إن أكرمكم عند الله أتقاكم، أي أن أكرم الناس عند الله وأشرفهم من كان أشد حذراً في حياته، وبعيداً عن السيئات، وعاملاً بأوامر الله، ومطيعاً صادقاً له.

فعلم بذلك أن معرفة شرف إنسان لا يتوقف على معرفة أبيه وأسرته، بل تتوقف على قوة الصلة بالله تعالى، وشدة الحذر والحيطة في كل شيئ، لأن من كان قوي الصلة بالله تعالى كان أشرف وأكرم عنده، ووُضع له القبول في كل مكان، ومن كان ضعيف الصلة بالله كان وضيعاً عند الله تعالى، وكان أهون عند الله تعالى، بل إذا وجد مكاناً عند مخلع النعال كان له شرف أي شرف، فاتضح منه أن معيار الشرف والعزة التقوى أو فقدانها، لا الأسرة الشريفة واللسان.

وورد في آخر الآية: إن الله عليم خبير. أي إذا كان الإنسان رغم هذه التعاليم قد اعتبر صاحب التقوى رجلاً لا علاقة له بالتقوى، وتظاهر بالأفضلية دنيوياً، واحتقر الناس، وكان ظاهره يخالف باطنه بأنه لا يعتبر أحداً أكبر منه، فليعلم هذا الرجل أن الله سبحانه لا يخفى عليه شيئ، بل إنه خبير بشئون الناس في كل حين وآن، ومطلع على أسرارهم ومكنونات قلوبهم في كل لحظة.

المؤمن والمسلم:

قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (الحجرات: ١٤).

حينما رأى بعض الناس سرعة انتشار الإسلام في جزيرة العرب دخلوا في الإسلام وصاروا مسلمين، لكن لم ينالوا الدرجة التي كا نت للسابقين الأولين من المؤمنين، ولا يكون ذلك إلا إذا دخل الإيمان شغاف قلوبهم، وصارت قلوبهم مؤمنةً فيكونون مؤمنين حقاً، وإلا يسمون مسلمين، ولا يكون إيمانهم معتبراً إلا إذا طبَّقوا تعاليم الإسلام على حياتهم، وقد منَّ بعض الأعراب المسلمين على رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنهم آمنوا، فأنزل الله عليهم الآية المذكورة أعلاه بحيث لا ينطبق عليهم كلمة الإيمان كاملةً، لأن الإيمان لم يدخل قلوبهم، فينبغي لهم أن يقولوا: أسلمنا، ونطقْنا بكلمة الإسلام، فإذا خالط قلوبهم الإيمان كانوا مؤمنين في معنى الكلمة، ويُشترط في الإيمان أن يطيع الإنسان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ويعيش حياته في ضوء التوجيهات الربانية، فالأهم المهم لكل رجل أن يكون قلبه مفعماً بالإيمان، ومزدوجاً بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإذا اجتمع هذان العنصران في رجل تيسر له أن يجتنب المعاصي والمنكرات، وكلما عمل من عمل صالح نال به فوائد عظيمةً، فلا تنفع هذه الأعمال بدون هذين العنصرين، وإذا عمل رجل مثل ذلك، فكما

جاء في هذه الآية: لاَ يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً، تُقدر هذه الأعمال بالمستوى الذي يكون مثله، وقال في آخر هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، فلا يفرض الله شيئاً على أحد، والإنسان يعامل عند الله حسب أعماله.

ميزة خاصة بالمؤمنين:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (الحجرات: ١٥).

تدل الآية على أن المؤمنين هم الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بتعاليمه، وقد دخل الإيمان في قلوبهم، بحيث لا ينشأ شك فيها، وكل ما يأمر به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم يعملون به بدون تردد، فلا يبالون فيه بنفع ولا ضرر، ويقبلون كل أمر برضا ورغبة، وإن كان ذلك الأمر مضاداً لأنفسهم، فإذا رأينا هذا الأمر بمنظار جديد كان منعكساً، وقد بلغ حال الناس في هذا الزمان إلى أنهم إذا أُخبروا بشريعة من شرائع الإسلام قالوا: من المستحيل أن نعمل بها في هذا العصر، وقد تغير الزمان وتبدل، رغم أن الميزة البارزة للمؤمنين إذا كان أمامهم أمر من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم سواءٌ يُعمل به أم لا، وجب عليهم العمل به في كل حال، وإن كان على حسابهم.

وقد دلت سورة الحجرات على علامات المؤمنين، وأخبرت بأن المؤمنين الصادقين هم الذين يؤمنون بالله ورسوله، وينقادون

لكل أمر من أمورهم، ويعملون به، ثم يضحون بنفوسهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله تعالى، من طرق شتى، ولا يبالون بأدنى شيئ في هذا السبيل، سواءٌ ماتوا فيه، أو فنيت أموالهم، وقد قال الله بعد ذكر صفات هؤلاء المؤمنين: أولئك هم الصادقون، أي أنهم لا ينطقون باللسان فقط، بل يؤقنون بالقلوب، ويوافق ظاهرهم باطنهم، وكل ما أمروا به يعملون به.

علم الله تعالى:

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمَانِ إِنُ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (الحجرات: ١٦–١٧).

الذين قالوا عن إسلامهم: آمنا به، قال الله عنهم: لا حاجة إلى مثل هذا القول، فإن الله عليم بكل شيئ، ومطلع على كل جزء في السماوات والأرض، وخبير بكل دقيق وجليل، وكذلك مطلع على درجات إيمانكم وإسلامكم، فلا فائدة لدعواكم، فابتغوا رضا الله تعالى بدلاً من دعواكم، لأن الناس ربما يدَّعون بناءً على مصالح متنوعة، لنيل المنافع المادية، ولطلب الجاه والفوائد الدنيوية.

منة الله تعالى:

وردت الصراحة في هذه الآية بمنِّ الأعراب على الله تعالى،

رغم أنهم حينما أسلموا فلا ينفع إلا أنفسهم، فلا يفتقر الله تعالى إلى عبادتهم، فإن جميع المخلوقات تعبده، وإن الملائكة والطيور حتى الأشياء الجامدة كالشجر والحجر وغيرهما من المخلوقات تعبده، فإن رجلاً إذا أسلم وهو يمنُّ على الله بإسلامه وبعبادته فهذا عمل خاطئ، ولا حاجة لله إلى عبادة أحد، فإذا آمنتم بالله وعبدتم له فينفعكم، وتصلح به حياتكم الأخروية، وتنالون الفوز الأبدي، ويوفر الله لكم منافع الحياة، لأن هذا منةً من الله أنه هداكم للإيمان، ووفقكم لقبول دعوته، والدخول في جماعة المسلمين، فالذين آمنوا بالله كان معهم فضل من الله تعالى، وإذا كانوا صادقين في إيمانهم فعليهم أن يشكروا الله على نعمة الإيمان، ويظنوا أن هذه النعمة لم يكسبوها بجهدهم بل بفضل منه.

علام الغيوب:

إِنَّ اللَّـهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّـهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (الحجرات: ١٨).

ذُكرت في سورة الحجرات توجيهات اجتماعية للمؤمنين، وورد توجيه جامع في آخر السورة وهو أن كل ما تقومون به من عمل في مجتمعاتكم، وما تُخفون من قول حسن أو سيئ في قلوبكم فليس الله بخبير بهذه الأمور فحسب، بل هو بصير بكل ذرة من ذرات هذا الكون، ومراقب لجميع نشاطاتنا كل حين وآن.

ورد في هذه الآية: إن الله يعلم غيب السماوات والأرض،

واستعملت له كلمة " الغيب "، فالغيب هو الذي يخفى على الناس علمه، ويتوقف الدين الإسلامي على الإيمان بالغيب، لأن كل ما أُخبرنا به، وما اعتقدنا من حيث كوننا مسلمين ومؤمنين، علوم غيبية، وهو قول فصل، فكل ما يكون أمام العين لا يشك الإنسان في وجوده، فالنار تسمَّى بالنار، والحجر يسمى بالحجر، والماء يعرف بالماء، كأن هذه الأشياء وتأثيرها ملموس لدينا، لكن إذا قيل: إن في الفضاء ملائكةً، وعلى عاتق كل إنسان ملكين، فهو ليس في مشاهدة الإنسان، فنحتاج في اعتقاد هذه الأشياء الغيبية إلى شيئ وصل إلينا من قِبَل نبي، ويتوقف إيماننا على اعتقاد هذه الأشياء من القلب، فإذا لم نؤمن بهذه الأشياء خرجنا من نطاق الإسلام، لأن محور الدين الإسلامي هو الإيمان بهذه الأمور الغيبية.

الإيمان بالغيب:

لا ينبغي لأحد أن يتردد في الإيمان بالغيب، لأن الرجال الذين اصطفاهم الله لإبلاغ الغيب إلى الناس لا يخفى عليهم حياتهم، وتتصف حياتهم أمام العامة بصفات حسنة، ويمر بمراحل من عند الله تعالى، لا يمكن أن يتردد فيه الناس، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يكذب قبل النبوة قط، وكان الناس يسمونه بالصادق، واشتهرت أمانته وصدقه في الناس، فإذا كان كل جزء من أجزاء حياة رجل طاهرةً ونظيفةً، فكيف يمكنه أن يتكلم خطأً بعد نبوته، وقد ختم الله تعالى على صدقه وأمانته بقوله: وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (النجم: ٣–

٤)، فإن نبياً إذا حذر أحداً من عذاب، أو ذكَّره بالآخرة، فليس معناه أنه يكذب، بل هو يقول ما يشاء الله تعالى وما يوحي إليه.

لكن من الأسف أن الناس ينسون هذه الحقيقة، ولا يقبلون قول رجل صادق، رغم أن رجلاً دنيوياً إذا قدم تجربته أو رغَّب في شيئ تهيّأ الناس لأخذه والعمل به نظراً إلى تجربته، ولا يترددون في قبول دراسات علماء الطبيعة بل نقبل كلامهم من غير تردد أو تأخير، ذلك لأننا نعلم أنهم تعلموا علوم الطبيعة، فإنهم لا يخبرون إلا بعد تجربة، كأن جميع نشاطاتنا تنحصر على قبول قول رجل، وإذا سافرنا على طريق جديد، سألنا عنه واطلعنا عليه تماماً، بناءً على ذلك نسافر على ذلك الطريق، فإذا لم نسلِّم توجيه أحد كنا مقصورين في دائرتنا، ولا يتكون المجتمع الإسلامي إلا إذا كان في أفراده عاطفة التعاون، لكن نبياً إذا أرشدنا إلى جهة في ضوء التجارب فلا نهتم بها شيئاً، وإن حياته كلها تكون عبارةً عن الصدق وصفاء القلب، ونتردد فيما يقول، ونشك في كلامه: هل هو صادق أم كاذب؟ وتساورنا فكرة أننا إذا عملنا بكلامه خسرنا خسارةً.

الواقع أن هذه الأفكار تشير إلى عدم الإيمان بنبوة نبي، فإذا اعتقدنا نبوة نبي كنا بعيدين كل البعد من الأمور التي نهانا عنها النبي، لكنا نشاهد أن الأمر الذي نهانا عنه النبي اقتربنا منه، ومعلوم أن كل شيئ بيد الله تعالى، وكل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإذا شاء أن يمرض أحداً أمرضه، وكل من شاء أن يشفيه

شفاه، وإذا شاء جعل له العلاج نافعاً، وإذا شاء جعل له الدواء ضاراً، وبناءً على هذه الأمور إذا دققنا النظر عرفنا أننا نخالف هذه الأمور، معناه أننا لا نؤمن بتعاليم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإذا آمنا بها من صميم القلب، فلا نخالف أمره، ونخاف كما ينبغي أن يخافه مؤمن صادق، لكن كل واحد منا اليوم يكون مسروراً مع خرق قوانين الله تعالى، كأنه لا يخاف الله تعالى، ولم يخطر بباله شيئ عن الحياة الأخروية، وقد فقدت قلوبنا كيفية اليقين التي إذا ذكرت معها جهنم وفظائعها تأثرت بها، واقشعرت جلودنا بمجرد سماع أهوال القبر والحشر، وكان الاجتناب من المعاصي سهلاً، لكن عدم وجود هذه الكيفيات دليل على ضعف إيماننا، فعلم أن إيماننا ليس بقوي، فلا تنتقل إلى حياتنا آثار الإيمان بالله تعالى.

فالحاجة إلى أن يشعر كل واحد منا بقيمة هذه الثروة الإيمانية، ويعتقدها فضلاً من الله تعالى، ويثبت هذه الحقيقة في قلبه، ويشكر الله تعالى على أنه وقاه من التسكع في متاهات الجهل والغواية، ووفقه للسجود أمامه، وهناك كثير من الناس يكونون في ظاهر الصورة أمثال المؤمنين، لكنهم حرموا نعمة الإيمان، فإذا استحضر أحد هذه التعليمات لا يخالف أوامر الله ورسوله، ولا يمكنه أن يتصور شيئاً عنه، لأنه يعتقد أن الله خبير بكل أمر من أموره، سواءً يبديه أو يخفيه، وهو مطلع على كل شيئ، كما مرّ في الآية السالفة الذكر: إن الله بصير بما تعملون، فهذه الأشياء سواءٌ كانت خفيةً في الكون أو ظاهرةً، يعلمها الله تعالى، ونحن

بني آدم نرى الأشياء الظاهرة، أو نعتقد بالأشياء التي تكون في تجاربنا، لكن الله وحده خبير بكل ذرة من ذرات هذه الكائنات الواسعة، التي وسع علمه كل شيئ.

غاية خلق سيدنا آدم عليه السلام:

وقد أكد الله تعالى في هذه السورة للمسلمين تمثيل الإسلام في جوانب مختلفة من حياتهم، وحينما خلق الله عز وجل سيدنا آدم، فلم يخلقه لمجرد لعبة أو متعة، بل خلقه لغاية مهمة وهدف عالٍ، وكشف عظمته أمام الملائكة، وذكر أنني أخلق مخلوقاً، يتميز عن سائر المخلوقات، ومن الذي يحمل فضيلة أكرم وأفضل من الملائكة؟ فإنهم خلقوا للعبادة، ولا يعرفون عن المعاصي شيئاً، بل ليست عندهم غرائز الذنوب والآثام، يفعلون حسب ما أمرهم الله تعالى، وهم خاضعون لله، فمن يكون أعبد الخلق وأكثره طاعةً منهم؟ لكن رغم وجودهم خلق الله الإنسان وفضله على سائر المخلوقات، وخلق هذه الدنيا له، وأودع فيها سائر النعم له، حتى كان دوران الشمس والقمر للإنسان، ذكره الله ذلك بكلمة التسخير، حيث قال: وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْلَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (إبراهيم: ٣٣–٣٤)، وسخر له كذلك الطيور والدواب، ليس معنى ذلك أن الله خلق هذا المخلوق، وخلق ذلك المخلوق وخلق مع جميع المخلوقات الإنسان أيضاً، بل الواقع أن الإنسان خلق

أشرف المخلوقات، وجعلت جميع المخلوقات تابعةً له، لتستوفي حاجته، وأودع الله تعالى في الأرض المعادن التي يحتاج إليها الإنسان، ولا يزال يكتشف عنها علماء الطبيعة ويخبرون بأن هذه الأشياء أُخرجت من مكان كذا، وأنها اُكتشفت من ذلك المكان، وهذا الشيئ يحمل خاصيةً كذا، فإنهم يكتشفون هذه الحقائق، لكن لا يستطيعون أن يخلقوا هذه الأشياء، فلا يمكن هذه الاكتشافات إلا إذا كانت هذه الأشياء موجودة.

سنة الله تعالى:

هذه سنة الله تعالى في الأرض منذ الأزل أن الله خلق من قبل للإنسان كل ما يمكن أن يحتاج إليه لصحته وبقائها واستيفاء حاجياته، ومن أعرف بحوائجه أكثر من ربه تعالى؟ فإنه خلق كل شيئ، وخلق الإنسان، فكل أمر من أمور الانسان في علم الله تعالى، فقد أودع في الأرض كل ما يحتاج إليه الإنسان، ويستفيد منه الإنسان حيناً لآخر، لكن اللافت للنظر أن هذه الأشياء لم تخلق عبثاً، بل كان في نظام الله تعالى أن يخلق خلقاً، يستعمله في هذه الدنيا، ويكلفه لأداء الفريضة التي هي غاية الحياة المستقيمة، وأهم شيئ فيها معرفة الإنسان ربه، وأداء شكره، واختيار منهج شكره، وإصلاح الإنسان نفسه، وكونه أفضل وأحسن إنسان، ومن كمال قدرة الله تعالى أنه أودع في طبيعة الإنسان خصائص ومميزات تنفع في إصلاح حياة الإنسان، ويكون الإنسان بها أشرف الخلائق، بل يفوق الملائكة، لأنه يقوم بها ما لا يقوم مخلوق آخر،

فالمخلوقات الأرضية تستوفي حاجيات الإنسان، ولا غاية لها، فبعضها للركوب، وبعضها للصوف، وكل ما يحصل منها فوائد ومنافع خلقت لها، فلا يعلم هذه الحقائق إلا الله تعالى.

ميزة خاصة:

مما ميّز الله به الإنسان عن الملائكة هو العلم، وقد منح الله الإنسان العلم، وأخبر الملائكة بأنه ميزة خاصة للإنسان، وذلك لأنهم كانوا يتعجبون من وجود مخلوق جديد، فقال الملائكة: نحن نعبدك، وماذا يفعل هذا المخلوق؟ فقال الله تعالى: إني أعلم ما لا تعلمون.

ومعنى ميزة العلم أن يتعلم الإنسان العلم، ويستعمله في حياته، وقد علّم الله تعالى الإنسان منهجه أيضاً، وأودع في طبيعته وذوقه أن يتعلم هذا العلم، ويستفيد منه، وبناءً على ذلك أكرمه الله تعالى بميزة الاختيار أيضاً، فكان معناه أن الإنسان سيحصل على العلم، ويستعمله أيضاً في بناء حياته، فإذا لم يكن له خيار، صعب إنجاز هذا العمل أيضاً، لأنه إذا لم يكن للإنسان خيار، عمل الإنسان وفق ما شاء الله تعالى، وكان مخلوقاً مسيراً، فمنح الله الإنسان خياراً، وأصبح هذا الخيار مسئولية كبيرة له، وأشار القرآن الكريم إليه قائلاً: إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً. (الأحزاب: ٧٢) أي أن الله عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال، وسألها: هل تستطيع أن تحمل هذه المسئولية؟ فأجابت الجبال: ليس في وسعنا، لكن لما

كلّف الإنسان قال: أحمل هذه المسئولية، لأن الله تعالى أودع في الإنسان خصائص يستطيع بها أن يحملها، فقبول الإنسان هذه المسئولية دليل على سرعة إجابته، فعبر عنه الله تعالى بالظلوم الجهول، أي إنه سريع الانفعال، وسريع الحكم، لأن هذه المسئولية قد أبى حملها الجبال، لكن الإنسان رضي بحملها، فإذا قبلنا هذه المسئولية فلا بد لنا أن نتحملها، وذلك أن نكون صالحين، ومبتغين رضا الله، ونختار مزايا وخصائص، وأعمالاً حسنةً، ومنفذين إرادة الله تعالى، التي أبداها الله تعالى بواسطة أنبيائه—عليهم السلام —.

جامعية الدين والشريعة:

وليعلم أن جميع المسئوليات التي وكلها الله إلى الإنسان، والأحكام التي أنزلها الله لقضاء حياته، كلها حسب وسعه، وليعلم كذلك أن الله لا يحتاج إلى أن يكون الإنسان صالحاً، سواء صلح الإنسان أم لم يصلح، لا فائدة فيه لله تعالى، فإنه لا يحتاج إليه، وله كثير من المخلوقات، والملائكة كذلك، وكلها مشغولة في عبادة الله تعالى، فليس هنا مخلوق لا يَعبد الله تعالى، فالدواب والطيور تعبد الله تعالى، لكن طرق عبادتها مختلفة، وقد وضع الله للناس طرقاً متعددةً، فكان لبني إسرائيل طريق خاص بالعبادة، وكانت للأمم قبلهم طرق، فعند بعض قيام، وعند آخرين قعود، وعند قوم سجود، لكن الله تعالى أكرم هذه الأمة بشريعة جامعة تتكون عبادتها من قيام وقعود وركوع وسجود، وقعدة وجلسة،

فجعل الله هذه الأمة خلاصة سائر الأمم، وجُمَّاع خصائصها، ونموذجاً عالياً لها، فأكمل شريعته عليها، فلم تبق حاجة إلى نبوة بعد نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولم تكن نبوة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم لمجرد شرف وعظمة، بل لإكمال الدين عليه، فلا حاجة إلى دين جديد، ونبي جديد، وهذا نظام العالم المعاصر أن عملاً إذا استمر من أحد على أحسن وجه، فلا حاجة إلى أن يتدخل فيه رجل آخر، كذلك كان السبب وراء إكمال الشريعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله جعل الشريعة جامعةً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وكلف الناس لأن يكونوا متصفين بصفات محمودة وخصال طيبة، ومطبقين إرادة الله على خلقه، وقد حمل الإنسان هذه المسئولية، لأنه كان يحمل هذه الموهبة، لكنه لم يتفكر في عِظم هذه المسئولية وحجمها، لأنه إذا تفكر أحجم هنيهة أن هذه مسئولية كبيرة، والواقع أن تطبيق إرادة الله تعالى، وصياغة النفس في قالب الإنسان الصالح مسئولية كبيرة، وهو يحتاج إلى همة وطموح واستيلاء كامل على النفس، واتزان ووسطية، فالله ينشئ هذه الصفات في نبيه بصورة كاملة، ثم يشرف عليه ويتناوله بالرعاية الكاملة، فكان صلى الله عليه وسلم معصوماً عن الخطأ، لأنه كان مصوناً من الله تعالى، بحيث لا يصدر منه ذنب بصفته إنساناً.

أودع الله في الإنسان صفات متناقضة وعادات مضادة، النفس تميل إلى الراحة والتلذذ والتمتع بزحارف الدنيا، لكن رقيباً

يقول: لا ينبغي مثل ذلك، ولا يجوز لك أن تحيد عنه قيد شعرة، ومن هذا الرقيب؟ وهو ليس بقائم، وفي يده عصا، بل هو أمر الله تعالى، فإذا اعتقدتم الله رباً وإلهاً، فلا بد أن تنقادوا لكل أمر من أموره، وقد أخبر ذلك بواسطة نبيه: إنه بما تعملون خبير.

خلاصة القول:

يشير آخر الآية إلى أن الله تعالى خبير بأعمالكم، فإنه يطلع على مصدرها، هل صدرت بنية صالحة أو فاسدة، وكم كنتم مخلصين في نياتكم، وأي عمل يتحلى برضا الله تعالى، وأي عمل تم لمصلحة شخصية أي نيل شهرة، فالله عز وجل بصير بهذه الأمور، ولا يمكن أن يخادعه أحد، وهو يطلع على عمل كل شخص، فكل شخص يُجزى في الآخرة حسب مستوى عمله، فالحاجة إلى أن نجعل مجتمعاتنا إيمانية، ومعنى الإيمان أن نطيع الله والرسول، لأن الإنسان إذا أحب أحداً لا يخالفه، فالإيمان أساس لصلاح الأعمال، وليكن هذا الإيمان راسخاً في القلوب، فإنه إذا كان راسخاً صلحت أعمالنا، وإذا لم يكن الإيمان كذلك انعكس الأمر، لأن الله اطلع على عمل كل إنسان، وهو يعرف كيف قام به وكيف أنجزه، فإذا عمل رجل عملاً بنية فاسدة، لكن إذا تظاهر بصلاحه فالله خبير بنيته، لأنه يقول: والله بصير بما تعملون.

هذا التفسير الوجيز لسورة الحجرات يدل على أن يكون المؤمن نموذجاً للأخلاق النبيلة، وبعيداً من المنكرات والفواحش، وأن يثبت في قلبه حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ويؤمن

إيماناً كاملاً بأوامر الله تعالى ونواهيه، وليكن في ذهنه أن الله يطلع على كل شيئ، ويرى أن أعمالنا خالصة أو فاسدة. ثم يجزينا جزاءً حسناً أو سيئاً.

كلمات الدعاء:

اللّهم اجعل الإيمان راسخاً في قلوبنا، اللّهم وفقنا للثبات على طاعتك بكل استقامة، اللّهم أبعدنا عن الأشياء التي تكرهها يا رب العالمين، اللّهم وفّقنا لإصلاح نفوسنا، اللّهم أبعدنا عن تنقيب عيوب الآخرين وذكرها، ووفّقنا لمعرفة عيوبنا وإزالتها بكل طريق ممكن يا رب العالمين.

يا رب العالمين! نحن مسلمون، لكن إسلامنا هو الإسلام التقليدي، فاجعل اللّهم إسلامنا جارياً في أعمالنا ونشاطاتنا، واجعل إسلامنا مملوءاً بروح الإيمان، اللّهم ثبّت في قلوبنا العقيدة الصحيحة وفكرة الإيمان المستقيمة.

اللّهم إن حياتنا مملوءة بالفساد، فسدّد خطانا واهدنا إلى سواء الصراط، وثبّتنا على الصراط المستقيم، اللّهم أصلح أحوال المسلمين في كل مكان، وطهّرنا من العداوات والخلافات والنزاعات، لنكو ن إخوة متحابين يا رب العالمين، اللّهم اجعل حياتنا حسب مرضاتك، ووفّقنا لجمع الخيرات في هذه الحياة، لتكون آخرتنا خيراً من الأولى، اللّهم زيّن قلوبنا بسلاح التقوى، واجعلنا من عبادك الصالحين، اللّهم من أصلحته كان فائزاً، ومن

لم تصلحه كان خاسرا، اللّهم لا تجعلنا من الخاسرين، واجعلنا من الناجحين، اللّهم ارحم المسلمين في كل مكان، واجعل للأمة فرجاً من كل مصيبة تمر بها يا رب العالمين، واجعل رسالة هذه السورة في قرارة نفوسنا وتطبيقها على حياتنا يا رب العالمين، اللّهم وفّقنا للعمل بتعاليم القرآن الكريم، آمين.

وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

فهرس الكتاب

كلمة الناشر	٥
تقديم الكتاب	٧
المقدمة	١١
بين يدي الكتاب	١٧
سورة الحجرات	١٩
المجتمع الإسلامي في ضوء سورة الحجرات	٢٣
عظمة الرسول ﷺ	٢٣
شعائر الله تعالى	٢٤
شخصية الرسول ﷺ	٢٥
واجب الإيمان الكامل	٢٦
شعائر الله الأخرى	٢٧
احترام رسول الله ﷺ	٢٧
أخلاق النبي ﷺ وواجب المؤمنين	٢٩
أسلوب الكلام	٣٠
امتحان القلوب	٣١
طبيعة سكان العرب	٣٣
بعض الأعراب الجاهليين	٣٣
تعليم الصبر وحكمته	٣٤
واجب العظمة النبوية	٣٦
آداب الزيارة	٣٧
فوائد تبين النبأ	٣٨
مرض عام في العصر الحاضر	٣٩
فداحة عدم التبين	٤٠

ملاحظة	٤١
خطاب موجَّه إلى المؤمنين	٤١
العمل برأي الصحابة رضي الله عنهم	٤٤
المنعم الحقيقي	٤٨
درس الصلح والإنصاف	٤٩
عصبية الرأي	٥٠
الأمراض الخلقية	٥٢
حكمة النهي عن الأمراض	٥٣
كارثة العصر الحاضر	٥٥
ثلاثة أمراض خطيرة	٥٥
التجسس	٥٧
الغيبة	٥٨
مثال قرآني للغيبة	٥٨
أساس كل عمل	٦٠
درس المساواة في القرآن الكريم	٦٠
المؤمن والمسلم	٦٤
ميزة خاصة بالمؤمنين	٦٥
علم الله تعالى	٦٦
منة الله تعالى	٦٦
علام الغيوب	٦٧
الإيمان بالغيب	٦٨
غاية خلق سيدنا آدم عليه السلام	٧١
سنة الله تعالى	٧٢
ميزة خاصة	٧٣
جامعية الدين والشريعة	٧٤
خلاصة القول	٧٦
كلمات الدعاء	٧٧
فهرس الكتاب	٧٩